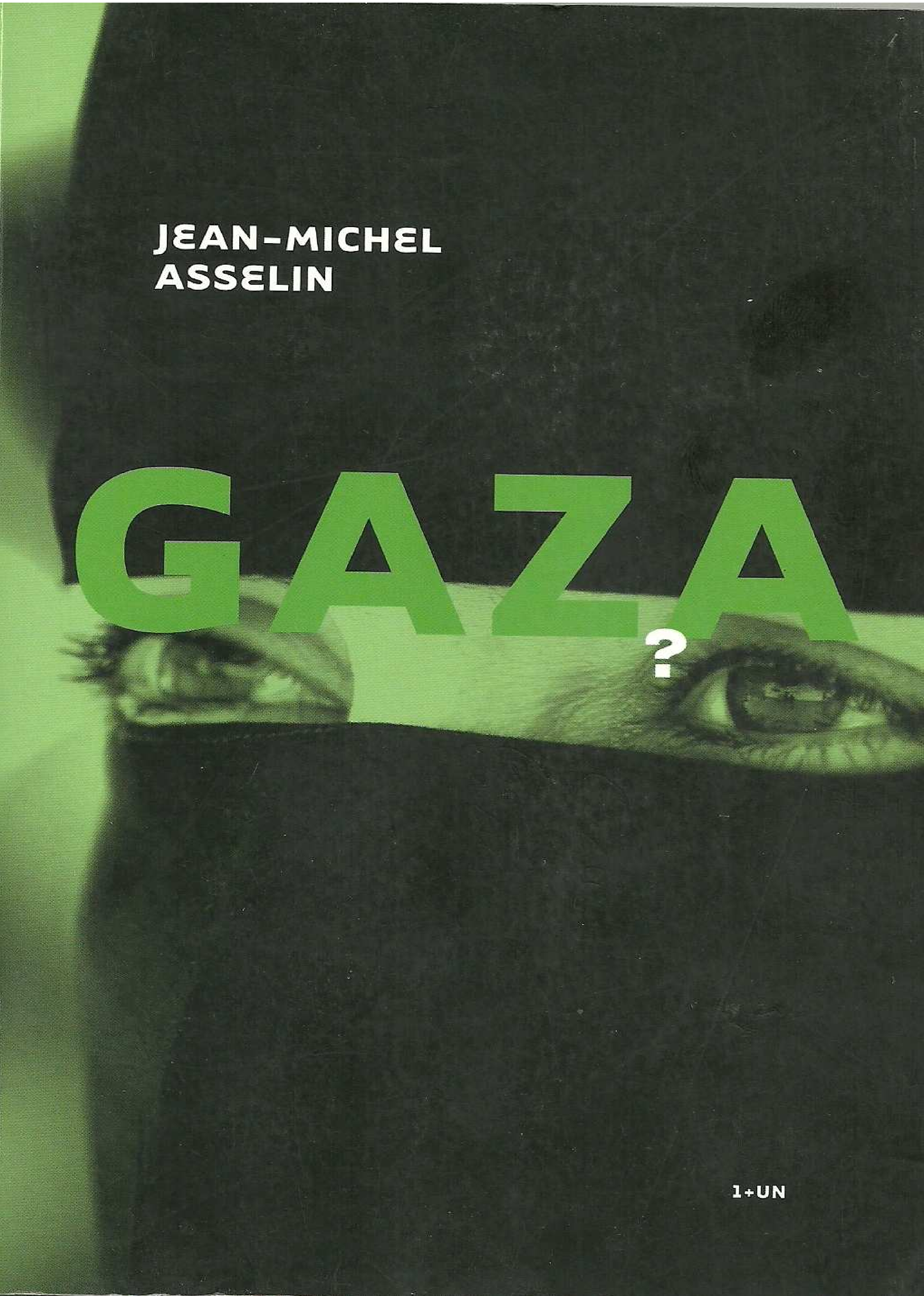
JEAN-MICHEL
ASSELIN
GAZA ?
1+UN

مقدمة

تم اعداد هذا الكتاب من قبل مؤسسة "أطباء للمساعدة" وذلك في أعقاب الحرب على غزة في منتصف ديسمبر 2008 م والتى استمرت حتى منتصف يناير 2009م، حيث أسفرت هذه الحرب عن سقوط ما يزيد عن 1400 من الضحايا و الآلاف من الجرحى. بالإضافة الى تدمير البنية التحتية للقطاع، وكذلك المنشآت الصناعية، و الزراعية، و تدمير ما يزيد على 11000 منزل.

هذا الكتاب يعتبر جزءًا من المهمات الإنسانية التى تقدمها مؤسسة أطباء للمساعدة في قطاع غزة، حيث تأخذ المؤسسة على عاتقها مهمة الشهادة على الأحداث والإعتداءت التى قامت بها قوات الاحتلال الاسرائيلي على قطاع غزة، هذا إلى جانب الخدمات الطبية التى تقدمها المؤسسة للشعب الفلسطيني من خلال عيادة الأمراض المزمنة بمدينة خانيونس، التى تم إفتتاحها في أعقاب الحرب على غزة مباشرة في مايو 2009م. والتى تقدم الخدمة الطبية المجانية لأصحاب الأمراض المزمنة " الضغط و السكري و القلب و الأزمة ". حيث يعمل بالعيادة فريق طبي متخصص من قطاع غزة. و كذلك عيادة البلدة القديمة بمدينة نابلس، التي تم افتتاحها عام 2006.
هذا الكتاب يتضمن شهادات من ضحايا الحرب على غزة، يروون حكايتهم للعالم، و كان لمؤسسة أطباء للمساعدة شرف و أمانة ايصال صوتهم للعالم في ظل الحرب المستمرة على القطاع من خلال الحصار الظالم لأكثر من مليون و نصف مليون فلسطيني يعيشون في سجن كبير. محرومون من ابسط الحقوق الانسانية في العلاج والدواء الخدمات الطبية التي أودت بحياة مئات المرضى بسبب اغلاق المعابر، و عدم توفر الامكانات الطبية داخل قطاع غزة لعلاجهم، و هناك المزيد من المرضى ينتظرون. هذا بالإضافة الى النقص الحاد في الأدوية و المستلزمات و المعدات الطبية، جراء منع قوات الإحتلال دخول هذه المواد الى القطاع.
هذا الكتيب إذ يروي هذه الشهادات الحية على لسان أصحابها، يؤكد أن الحرب على غزة لم تنهِ بعد. و أن هذه الحرب هي حلقة في مسلسل تتوالى حلقاته بين حين و آخر بمختلف الوسائل.

للكاتب الفرنسي/ جان ميشيل أسلان
بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية الدكتور/ ناصر النواجحة.

الموقع الاكتروني : http://www.helpdoctors.org
البريد الالكتروني : info@helpdoctors.org

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

غزة

لم ينس أحد تلك الحرب التي بدأت في ديسمبر 2008 وانتهت في يناير 2009 في قطاع غزة بفلسطين. وقد كانت مؤسسة أطباء للمساعدة، وهي جمعية فرنسية غير حكومية. أحد الشهود الأجانب القلة أثناء القصف.

لقد عادت أطباء للمساعدة من هذا القطاع المحطم وهي تحمل فكرة أنه يتوجب أن نحكى القصة. لا أن تحكم، لا أن نستخلص الدروس. لكن أن ننقل قصص حياة يستطيع كل منا أن يتساءل عبرها وأن يهتم. رسالتنا واضحة: آلاف الفلسطينيون يحتاجون للمساعدة يناشدون طلبا للمساعدة.

يريد هذا الكتاب أن يقول من هم، أن يروي ما عاشوه، ما يحلمون به من أجل الغد.

لقد كان السفر إلى غزة ، مرة عبر مصر، ومرة أخرى عن طريق إسرائيل ، بمثابة مغامرة صغيرة ، وستكون هي الخيط الذي ينقلنا الى عفاف وزينات وجمال وخالد وعائشة وخلود و عطا ارميلات و فايز... لكل رجل وامرأة منهم حكاية. إنهم هم من يروون الحكاية ، بكلماتهم الخاصة، حقائقهم وأوهامهم. لقد جمعنا حياتهم من خلال مقابلات أجريناها مع مترجمتنا آسيا. نأمل فحسب أن نكون على قدر التزام هؤلاء الشهود وأن تستطيع كلماتهم نقل رغبتهم في السلام.

ماذا حصل لي؟

قال لي طبيب: "ماذا لو اصطحبتك إلى غزة. وبما أنك تكتب ، فبإمكانك جمع شهادات وأن تستمع للناس يتكلمون عن الحرب؟ فلا هناك ، ولا هنا ، ولا في أي مكان آخر، فإن أحداً لا يسمعهم. وسترى بنفسك أن الصوت ينقصهم كما ينقصهم أحياناً ذراع أو ساق. إنها إنسانية الحرب ، إنسانية جاهزة ، مقطعة. إنهم أناس لا يمكن إصلاحهم. بإمكانك أن تجمع كلمات, أعتقد أن معاناتهم لديها ما تقوله".

خطرت لي ألعاب طفولتي، أرنب مقطع، ودمية منزوعة الشعر، وجندي بلاستيكي ينقصه السيف ، والذراع الذي يحمل السيف. أنا مثل أي إنسان آخر، غزة هي مجرد صوت في الراديو، هي صور أراها مراراً وتكراراً في التلفزيون، ناس تجري في الشوارع، انفجارات.

الليل مخيم لكننا نرى بوضوح، لكن ليس نور القمر هو الذي يضيء المشهد، المشهد يدور في ضوء أخضر كالذي نراه في كاميرات الفيديو الصغيرة عند استعمال زر التصوير الليلي. المشهد قبيح، ليس كما في الأفلام الأمريكية حث تفجر قنابل قرية، المشاهد جميلة للنظر وكأنها عرض. ما أعرفه عن غزة لا يشبه أي شيء آخر، ناس يفرون من دخان كثيف، دائماً ناس يصرخون عندما يصل مصاب على حمالة. يبكون وهم يحملونه بعنف حتى نقول لأنفسنا أنه سيضره أكثر مما سينفعه.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

نرى ذلك من بعيد، فلدينا الكثير من المشاكل، قيل لنا كثيراً أن الإحسان المنظم يجب أن نبدأه بأنفسنا، ولا نرى جيداً ما يمكننا فعله. لم نعد نعرف لماذا يتقاتلون، ثم إن هذا بعيد عنا، وعلى أي حال فإنهم ليسوا مثلنا فهم لا يخافون الموت، أليس كذلك؟ إنهم يحبونه لدرجة أنهم يفجرون أنفسهم بحزام من القنابل موضوع حول البطن. وهذا يجعلنا نتساءل. وعندما نتساءل كثيراً، نتركهم ونذهب لنلعب اللوتو وندافع عن راتبنا ونكافح ضد الفقر عندنا أو لا شيء، أو لا شيء يذكر.

سيتعرف الله على عباده. ونقول لأنفسنا إن المنطقة ساخنة لأننا نفترض دائماً أن للحرب علاقة ما بالنار. ألا نقول: "الذهاب إلى النار أو الذهاب إلى خط النار؟"

فالحرب لا بد أنها من أجل حرق سعراتنا الحرارية الزائدة.

"كنت على شاطئ البحر، البحر المتوسط، وكان الجو دافئاً". أتناول الشراب مع صديقتي عندما اتصل بي الطبيب ريجيس من هناك. كان الصوت بعيداً ومتقطعاً ومتعباً. كان ريجيس هناك في غزة في قلب الحرب. كنت أعلم ذلك لأنه ذات صباح، وأنا في الحمام، ناديت على آن: "اسمعي، إنه ريجيس، إنه في الحرب في غزة ..."

شعرت بالفخر لأني أعرفه، لأني تعاملت معه لأيام وأيام في حرب متقطعة ولطيفة – حتى وإن متنا فيها– حرب وهمية، حرب الرجال مع الجبل. فقد كان ريجيس لسنوات طويلة طبيبي الخاص في حملاتنا الجميلة والجريئة في الهملايا. هذه المرة، وعلى التليفزيون، رأيت وجهه، صورة مغروسة وسط صور غير واضحة ذكرتها.

لم يتغير ريجيس، ضفيرة من شعره ملقاة على جانب رأسه، نظارات، وحديثه الذي لا مكان للتردد فيه. ريجيس طبيب الطوارئ، رجل من الشمال يستمتع بالتسلق على كومة من الحجارة ثم ينقض في جنون الهملايا.

فقد كان شبه مضحك أن أسمعه هكذا في إحدى الانات حيث ربما كان يجلس سلفادور دالى بأحذيته الزرقاء وطاقيته الحمراء. قال لي ريجيس: "يجب أن تأتي، فهناك الكثير من القصص لترويها ..."

أعتقد أنه محق. وفوراً مثل الغبار لا ندع هذه القصص.

ريجيس وأطباء للمساعدة.

في رفح، وفي غزة، ومن باب المداعبة، كنا نسميه: ريجيس الرئيس. كنا نستقل سيارة أجرة في القاهرة وشرح لي ريجيس كيف نبدأ رحلتنا الخاصة. نتذكر ببساطة عندما كنت في الصف التاسع، وكيف أن جارة روت لنا عن عملها كطبيبة في أفغانستان لصالح أطباء بلا حدود.

كنا نستمع لها تتحدث عن الجبال، وعن شخصيات غير عادية، وعن المغامرة ... قلت لنفسي: أريد أن أكون مثلها.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

بعد دراسات متقلبة بعض الشيء، أصبحت طبيباً وأيقنت أن العمل في المنظمات الإنسانية الكبيرة معقد بعض الشيء. وأخيراً دخلت في خدمة الإسعاف العالمي. وهنا تم الاحتكاك بأول مهمة لي وهي إعصار ميتش في الهندوراس.

باختصار، فهمت بسرعة أن للعمل الإنساني الرسمي بعض الحدود: القليل من الاهتمام بالسكان المحليين ومواردهم (الأطباء المستشفيات...الخ) وبإمكانيات غير متناسبة أحياناً، كنا نعمل من أجل الاستعراض. ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك حد فاصل واضح بين العمل الإنساني والاستخباراتي. لقد كان تسونامي هو من أعطانا فكرة تأسيس منظمة خيرية غير حكومية مختلفة، مثل أطباء للمساعدة.

لقد أيقنا، بغض النظر عن الأموال الضخمة التي انفقت بعيد هذه الكارثة، أيقنا صعوبة أن تكون معالجاً ومشرفاً ومديراً ومحاسباً...الخ. في ذلك الوقت، كنت عضواً في مجلس إدارة مؤسسة أطباء العالم ومسئولاً عن بعثة فلسطين.

في صيف 2006 ، كنت في غزة، وكانت رحى الحرب تدور بين إسرائيل وحزب الله في جنوب لبنان ولم تكن غزة مستثناة منها. هنا صدمت فوراً من العدد الكبير من المعاقين والمبتورين. كلهم أصيبوا بنفس الطريقة. بالاستماع إلى شهادات متعددة، فهمت أن أسلحة محرمة كانت تستخدم، ومن بينها "قنابل عنقودية" لم تكن قد استخدمت من قبل.

دققت جرس الإنذار لأكبر عدد ممكن من الناس، فضلاً عن الصحافة. اتصل بي صحفيون ورويت لهم الصعوبات الجمة التي يعيشها الجرحى من المدنيين. لكن ذلك لم يرق لمجلس إدارة أطباء العالم. وعند عودتي إلى باريس وأثناء اجتماع، عاقبني رئيس المنظمة. بالنسبة لأطباء العالم، كان علينا أن لا نقول شيء البتة. كان ذلك بمثابة صدمة كبيرة لي، فكيف لمؤسسة أنشئت للعلاج ولنقل الشهادات أن ترفض إتمام مهمتها؟

بعد وقت قليل، أجمع كل الخبراء الدوليون والتقارير التي نشرت على نطاق واسع أن إسرائيل استخدمت قنابل عنقودية في جنوب لبنان وغزة في صيف 2006.

وبالطبع قررت أنا ومجموعة أخرى من أطباء مؤسسة أطباء العالم تأسيس منظمة غير حكومية أخرى لكي نقوم بما هو أساسي.

هكذا قررنا تأسيس جمعية يرتكز عملها على العمل الإنساني العادل. منظمة أنشئت من أجل ومن قِبَل من يحتاجون المساعدة وبأقل تكاليف تشغيل ممكنة. لم نكن نريد أن نخلق مهنة إنسانية أو راتباً إنسانياً. كل من يعملون مع أطباء للمساعدة هم أناس لديهم وظيفة أصلاً ويأتون خلال إجازاتهم ويريدون تقديم العلاج والرعاية... فلسفتنا أن نثق بمن هم هناك على الأرض وأن نصغي إلى طلباتهم.

وفي هذا السياق، في 2009/1/9 – الحرب بدأت في 2008/12/27 – دخلنا عبر رفح إلى قطاع غزة. وبما أن الإسرائيليين كانوا قد أعلنوا عن إنشاء ممر إنساني لمدة ثلاث ساعات يومياً. غادرت مع جراحين ممن يحملون جنسيتين، الدكتور مؤمن والدكتور منير ثم مهدي فدواش الذي كانت مهنته الإمدادات والأمن، وهو مصور أيضاً. كان دخولنا إلى غزة ملحمياً بعد ثماني ساعات من الانتظار. وبمجرد أن اجتزنا الحدود المصرية، وجدنا أنفسنا في حافلة وفي وسط الظلام. استهدفتنا الدبابات ورافقتنا سيارات إسعاف الهلال الأحمر نحو الشمال ، إلى مستشفى الأمل في خان يونس. بعد أن قضينا ليلة في هذا المستشفى البعيد والذي لا يحتوي على معدات جراحية، قررنا

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

الالتحاق بمستشفى الشفاء بمدينة غزة. كان المستشفى يفيض بجرحى الحرب. كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر لأن منطقة الشمال ممنوعة من قبل الجيش الإسرائيلي، الدبابات تعترض الطريق، إلا أننا استطعنا المرور في نهاية المطاف ضمن قافلة سيارات الإسعاف. فوجدنا أنفسنا في ذلك المكان حيث يتم تنزيل الجرحى والقتلى بوتيرة مخيفة. وبسرعة فهمت أنه كان من المستحيل عليَّ أن أعمل في قاعة الطوارئ لأقدم علاجات فعالة في هذا المكان، حيث كان الأحياء والأموات ملقون على الأرض. ذهبت إذاً إلى غرفة العمليات وهناك يصل الجرحى على طاولة العمليات وهم مازالوا بملابسهم الملطخة بالدماء. كان علينا أحياناً أن نبتر مريضين أو ثلاثة في نفس غرفة العمليات، على الحمالات، أو حتى على الأرض ليس العمل ما ينقص في مثل هذا المكان. ويصعب علينا وصف ما رأيناه، فهو أكثر من مرعب.

كأطباء متخصصين في الطوارئ، كنا قد اعتدنا رؤية مرضى في حالة لا يمكن وصفها، لكن هناك، كان علينا أن نعمل مع بشر ممزقين كالأسمال. كان كابوساً حقيقياً حيث يفقد الإنسان والجسد شخصيته. يبدوا أن بعضهم وكأنه مر من مفرمة لحم من أقدامه إلى جذعه. لم نكن نستطيع أحياناً التمييز بين الأمام والخلف. كان علينا أن نواجه نظرات أولئك الناس ممن هم على وشك أن يقضوا نحبهم بعد بضع دقائق وكانت معاناتهم في أشدها.

ثم تركنا الشفاء وتوجهنا إلى مستشفى القدس في 1/15 . وهنا ، الساعة العاشرة من صباح في نفس اليوم، وبعد ليلة من القصف المكثف دمرت قنبلة وأحرقت الجناح الإداري للمستشفى وبجانبه كان مبنى مكون من 9 طبقات يحترق. توجب علينا أن نُنزل المرضى والجرحى بأسرتهم إلى الطابق الأرضي. وفي تلك اللحظة، أقبلت مئات العائلات نحو المستشفى تحمل أعلاما بيضاء لتحتمي بها. كانت تلك العائلات محبوسة في بيوتها منذ ما يقرب من 24 ساعة تحت قصف الدبابات. ونجح رجال الإطفاء بالسيطرة على الحريق نحو الثانية بعد الظهر. وبعد ذلك بساعة تمكنا من إعادة كل المصابين إلى غرفهم وبادرنا بالاتصال بالصحافة وإبلاغ القنصلية الفرنسية بالقدس وكانت قناة الجزيرة الفضائية قد وضعت كاميرات في كل مكان وكانت تبث صور المستشفى المشتعل باستمرار. نحو السابعة مساءاً وجدت نفسي مع مريض مع فريق جراحين من أطباء للمساعد في غرفة صغيرة لأخذ قسط من الراحة لم نكن ننام إلا القليل منذ أيام طويلة ولم نأكل إلا الشيء اليسير.

كان من الصعب أخذ قسط من الراحة مع إطلاق قذائف الدبابات التي كانت تنبهنا كلما اقترىنا من النوم. إضافة إلى خطر الاقتراب من النوافذ.

وفجأة ، هز انفجار عنيف المبنى. واعتقدنا كلنا أنه موجه نحونا، فارتدينا الستر الواقية من الرصاص لنرى ما حدث. كان الذعر سيد الموقف والظلام مخيم والناس يتصارخون والدخان يلف كامل المبنى، كان سقف المستشفى ملتهباً، وأجزاء منه تتساقط في الباحة. جمعنا أكبر عدد ممكن من الناس في القاعة الرئيسية ولكن وبسرعة تذكرنا أننا نسينا مرضى في الطوابق العلوية. تطوع عشرون منا للذهاب وإنقاذ هؤلاء المرضى واحداً بعد واحد. نقلناهم إلى الخارج. كنا مجموعة كبيرة من الأطباء والأصحاء والمصابين نلوح بأعلام بيضاء في وسط الشارع. كانت النار والقنابل تضيء المشهد وكأننا في وضح النهار. كان من المستحيل أن لا يرانا الجنود... حلقت المروحيات فوقنا باستمرار

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

وعندما خفت صوت القصف، استطاعت إسعافات مستشفى الشفاء أن تخلي الجميع. ادركنا حينها أنه لم يعد في غزة مكان آمن واحد وأن دور الشفاء في سيأتي المساء التالي.

طوال هذه الساعات، تمكنت من الاتصال تلفونياً بعدد من الصحفيين وشجبت هذا الخرق الصارخ وغير المقبول للقانون الإنساني الدولي، وهو استهداف مستشفى مليء بالجرحى وبالعاملين. اتهموني بممارسة الصحافة. لم أهتم كثيراً بالأمر. لقد كنا في حالة طوارئ وكان من المهم إعلام الآخرين وتقديم الشهادة. نحن لم نقيم الأحداث بل روينا ما رأيناه وتجرأنا على القول: توقفوا، أوقفوا القصف عن العجائز والأطفال.

أؤكد أن من بين كل من عالجناهم، لم نقدم أبداً علاجاً لجندي مدرب جيداً. في غزة واجهنا هذا الموقف اللامعقول حيث يناشد الناس طلباً للمساعدة وحيث لا يمكننا أن نهب لنجدتهم وحيث لا يمكنهم أيضاً الهرب.

إنه سجن حقيقي. كان علينا أن نطلب الإذن في الصباح لندخل. قبل إحكام الحصار، كان يدخل يومياً ما بين 500 الى600 شاحنة مساعدات إنسانية وأصبحت الآن 5 أو 6 . أما الباقي فيدخل بطريقة غير شرعية عبر الأنفاق وبأسعار باهظة بالكاد يبقى الناس في غزة على قيد الحياة. في الأيام الأولى من وقف إطلاق النار، خرج السكان بهدوء، بلا فرحة، يعدون قتلاهم ويزورون أقاربهم. ومن فقدوا بيوتهم لم يكن أمامهم، إلى جانب انتظار المساعدات الإنسانية، سوى حلول قليلة جداً. وهنا طالبنا عددا من الأطباء بإنشاء عيادة للمرضى المزمنين (ضغط الدم، السكري...الخ) وهؤلاء لا أحد يهتم بهم في وقت الحرب وهكذا عدنا نبحث عن تمويل في فرنسا لإتمام مشروع العيادة في خان يونس...

إن فكرة أطباء للمساعدة ترتكز على الثقة التي نضعها في العاملين ممن نعمل معهم هناك. أطباء للمساعدة تستجيب لطلباتهم وتضعها في رأس أولوياتها. تعطيهم الإمكانيات لإنشاء ما هو أفضل وباستخدام العاملين المناسبين.

نحن نخلق فرص عمل. بالمعنى الحرفي لكلمة سياسة (السياسة هي المشاركة في حياة المدينة) فإننا هنا نمارس السياسة. كان إمكاننا طبعاً الانتظار حتى نهاية الحرب لنأتي ونعالج. لكن في هذا السجن الكبير في غزة كان من الأهمية بمكان أن يكون هناك شهود. لا نقول إننا محايدون، بل نفضل أن نقول إننا منحازون. القتيل، أي قتيل هو قتيل زائد سواء كان في غزة أو في إسرائيل، وهذا لا يحتمل. لامنا البعض على عدم القيام بالمثل في سديروت، لكن في إسرائيل حيث أودت الحرب بـ 15 شخصاً من بينهم 11 جندياً، لم تطلب أبداً المساعدة الإنسانية الدولية وهو أمر يسهل تفهمه لأن هذه البلد قادر على الاعتناء بجرحاه لوحده. الأمر ليس بالمثل في غزة حيث يناشد الفلسطينيون طلباً للنجدة وأحصي 1500 قتيل وآلاف الجرحى وأكثر من 30 ألف إنسان يعيشون منذ انتهاء الحرب تحت الخيام وبدون ماء صالح للشرب أحياناً.

يجب أن نتناسى ولو للحظة النظام السياسي الكلي للدول ونهتم بالسياسة الجزئية للبشر. في غزة، وفي خضم القصف، كان السؤال الوحيد الذي يتبادر إلى الأذهان هو: لماذا تتلقى طفلة في السابعة من عمرها رصاصة في الفك وأخرى في الصدر ثم تموت بعد ساعة من وصولها المستشفى؟ أو لماذا يحمل شيوخ مُثبت ساق في ممر المستشفى؟ لأن سيقانهم مكسرة نتيجة لهدم البيت فوق رؤوسهم.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا

صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

إن الاحتياجات الحياتية للناس في غزة، قبل أي مكان آخر في العالم، هي غاية في البساطة، يريدون أن يعملوا، يريدون أن لا تطلق النار على أطفالهم وهم في طريقهم للمدرسة، يريدون حرية الحركة. بعد أن تفتح الحدود مع غزة، سيستطيع هؤلاء العمل والمتاجرة بحرية... لن تكون هناك حاجة للمساعدة الإنسانية. يجب أن نعطي الناس الإمكانيات لأن العالم يتغير. فهدفنا أبداً ليس أن نمتلك 50 مكتباً متناثراً في أنحاء العالم.

عند عودتي إلى جرونوبل، انتظرت وصول ريجيس من "ليل". كنت أتابع يومياً الأخبار على التلفزيون وأسمع الراديو، الكثير من الضجيج حول هذا المستشفى الذي أحرق في غزة حيث يعبر ريجيس عن شجبه. كان هذا المشهد ينتقل صورة فوق واقعية للحضور. مهدي فدواش. فهذه الصورة تظهر مبنى مضيء في وسط الليل، تلتهمه النيران كألعاب نارية، مع فارق بسيط وهو عدم وجود موسيقى لـ جون ميشيل جار. يقول ريجيس: هناك مصابون في الشارع ونحن معهم. هناك رضع وحاضنات وها نحن نلوح بأعلام بيضاء، أعلام لم تتلطخ بالدم بعد. نخشى أن يقضى علينا كما قضي على طوابق هذا المستشفى المشتعل. هل يحق لأحد أن يقتل من يموتون أو من ولدوا لتوهم؟ عندما علمت أن ريجيس عاد إلى الوطن حي يرزق اتصلت به... "نعم أريد أن أرى وأسمع، أن أدون الكلمات، أن أعد تقريرا ليس شفقة ولا فضولاً ولا من باب التزام نضالي. أنا غير قادر أن أقول لماذا. ربما أقول أن هذا العمل يفرض نفسه أن لا خيار هناك. أنني أتبع مصيري وهو انحناء طبيعي لا أدري. لقد وثقت بريجيس ببساطة عندما قالي لي: "هذا أمر مهم" الأشياء المهمة تكفي نفسها.

السؤال الأول الذي طرحته هو كيف الناس في غزة حولي؟

القليل كانوا يعرفون

وأنا لا أعرف أبداً

لا يجب أن نضحك من الأسئلة الغبية

فهي تعكس الاستهتار

أو ما تبقى من براءة

لم أكن أعتقد حقاً أنني سأذهب إلى غزة. كانت مجرد فكرة لم أعتقد أنها ستتحقق. ورغم ذلك تحدثت عنها. وغالباً ما كنت أشدد عليها لدى من كنت أعتقد أنهم لن يفهموا أبداً، أو قليلاً جداً. لقد منعت نفسي من البحث على الإنترنت وجمع المعلومات والحقائق، لكنني كنت أردد اسم منظمة ريجيس الإنسانية أطباء للمساعدة وكأنها شعار، وكأنها مانترا. كان لدي انطباع أنه كلما اتصلت به، وكأنني أتصل بأطباء للمساعدة ربما أنني شعرت أنني في خطر، أو أنني مريض، أو؟

ذات مساء وبينما أنا في حانة، تكلمت كثيراً ثم عضضت على أصابعي. إن الرغبة في غزة ليست تماماً ببساطة الصعود إلى الطائرة والذهاب إلى هناك. إلا أنني في ذلك المساء، وبمساعدة صديق، أعتقد أنني اقتربت من مغزى هذه الرحلة.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

نعم، كان هناك في داخلي هذه الرغبة التراجيدية في المغامرة. لكن هذه المرة، كان هناك أيضا شيء من الخدمة، عدم الرد على السؤال الحاسم: من تخدم؟ لم أرد رداً مخيباً... مثل: لا أدري. ربما أخدم نفسي. كلا. كنت أتحرك لأذهب نحو أناس يصرخون فعلاً أطباء للمساعدة. وأنا لا أملك إلا تدريباً بسيطاً في الإنقاذ. بدأت الأمور تتجسد بصعوبة بين التزامات مهدي، الدكتور مهدي الطيب. (مصور في وكالة الصحافة الفرنسية وصاحب مطعم حلال) وفرنسوا، وهو طبيب طوارئ في مدينة سانت إيتان وريجيس والتزاماتي أنا. كنا نعتقد أننا لن نستطيع أبداً التحضير لهذه الرحلة.

فرانسوا جيرو . صوت ممثل

كان فرنسوا قد ذهب إلى غزة عدة مرات. لم يكن هذا الطبيب معنا في رحلة الحرب يروي بصوته الجميل: "لم أذهب معكم وبكل وضوح لأن زوجتي لم ترغب بذلك, لدينا أطفال صغار وكانت هذه البعثة خطيرة جداً وكنت أوافقها تماماً". عادةً، حتى وإن كانت خائفة، فهي تصر على أن أعيش ما أريد أن أعيشه، بل قد تود أحياناً أن ترافقني... لكن غزة في خضم الحرب لم تكن رحلة مطمئنة حقاً. وبالمقابل، ولأنني كنت مسئولاً عن تحديث موقعنا، ربما أنني أعرف غزة جيداً ولي فيها أصدقاء كثيرون. وقد كان عندي شعور أنني أعيش في هذه البعثة. كنت ملتزماً فيها أكثر مما أردت. فغزة بالنسبة لمنظمتنا هي البداية اللازمة. فقد قدمت لنا اعترافاً حقيقياً من عالم الصحافة. شخصياً، أعتقد أنها كلفتنا كثيراً فأنا لست مشاكساً ولا انتحارياً من أجل القضايا الإنسانية. وحتى وإن كنا نقدم قطرة من الخير في محيط من الآلام، فيجب أن نقدم ذلك دون أن نكون قصيري البصر. أبقى متواضعاً أمام مفهوم تخفيف الآلام. لم أتعرض في حياتي ولا حتى إلى عشر الألم الذي وجدته عند بعض الجرحى والمرضى في آخر الدنيا، لكن أن تضع يدك ببساطة عليهم وأن تسمعهم، فهذا إيجابي في الحياة القاسية التي يعيشونها فهم يرون أن هناك شيء آخر، أن الأمل مازال موجوداً.

اذكر مرة أن أحدهم اصطحبني لرؤية جرحى وموتى في مستشفى الشفاء. رؤية الموتى ليست بالأمر الهين. هناك من يعتقدون انك أتيت من بعيد وانك الآن تعرف وانك سوف تتكلم عن ذالك. رأيت في تلك البلاد التي تعيش حربا أو في كارثة طبيعية، أن لا قيمة للإنسان، أنه يمكن سحقه وإذلاله أو نفي وجوده. رأيت كم أن الإنسان هش للغاية. في هذه الخطوة التي أدت بي إلى معالجة أناس في بقاع مختلفة من العالم، كان لدي شعور – خاصة في غزة- أنني كنت هناك حيث الحدث، أنني لست على الرف.

تفهم أفضل أننا جميعاً ضحايا، ضحايا المكان المتواجدين فيه، نعاني في المكان الذي ولدنا فيه. لم يجذبني أبداً الخطر، او متعة المخاطرة التي تولدها هذه الأماكن، لكن بالمقابل، ربما كان لدي ميل إلى الاغتراب، إلى مشاهدة الغرباء الآخرين أشباهي، لكنهم مختلفون جداً. أستطيع أن أروي طرفتين عن غزة...

دعينا يوماً للقاء سائق سيارة إسعاف بمستشفى الشفاء وكان هذا السائق قد استهدف بينما كان يقدم الإسعاف على شاطئ البحر. كان السائق يختنق من شدة الألم في سريره، كنا جميعاً حوله بملابسنا البيضاء التي اصفر لونها وكان

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

هناك الكثير من الرسميين يلتفون حوله ويمتدحون صفاته وشجاعته. كان الجو تراجيدياً ورسمياً. وهنا اقترب ريجيس من المصاب وقال له بالانجليزية: نحن معك يا صديقي واضعاً يده بقوة على كتفه وهذا ما جعله يصرخ حيث كانت الرصاصة في كتفه تحديداً. كان الموقف فظيعاً ولم نستطع ان نتمالك انفسنا من الضحك.

اقل طرافة قصة هذه الفتاة الصغيرة، ذات الستة أو السبعة أعوام والتي التقيتها في مستشفى برفح... كان ذراعها مثبتاً بالجبس وبمثبتات تخرج منه. كانت تعاني أشد المعاناة ولونها شاحب. سألت ما حدث لها؟ لقد تلقت رصاصة من مسدس. وعندما أفكر أن جندياً شعر بالحاجة للتصويب نحو هذه الطفلة وأطلق النار. بأي حق؟ ولي سبب؟ ولأية فائدة؟ هذا ما لاستطيع تقبله.

ثم حدث ما حدث. تدريجياً وكأننا لا نستطيع أن نبدأ إلا هكذا عندما نتحدث عن غزة. هذه الأرض المليئة جداً والفارغة جداً. أكثر من مليون ونصف نسمة يتكدسون في هذا الشريط على ساحل البحر. يبلغ طوله 40 كيلو متراً وعرضه نحو 15 كيلو متر. أرض بور كبيرة لأطفال التراب. تواريخ وناس آخرون ومواعيد وصور جوازات سفر. لقد تكدس كل شيء وتجمع وعلمت أنني سأغادر يوم الثلاثاء، العاشر من فبراير. رأيت أن هذه الرحلة كانت تثير القلق في البيت. هذا القلق نفسه الذي منعني مثلاً أن أخبر أمي بهذه الرحلة الخطرة. أمي التي تدعي إلى الآن، ورغم أنني تجاوزت الخمسين، أنها تعرف أي طاقية تدفئني على سفوح الإفرست. حولي أصدقاء يعتقدون أن هذا أمر رائع. العجيب أنه كلما أعلنت عن موعد مغادرتي، كانت الدهشة والشك والإعجاب والقلق تبدو على الكثير منهم... وإذا حذفت المنافقين الذين يكتفون بالتعليق لكي لا يعملوا، فقد شاهدت الكثير من التعاطف. تلقيت رسائل وأعطيت عناوين. عجيب عدد الناس الذي التقيتهم والذين يعرفون شخصاً ما هناك. عجيب كيف أن غزة أصبحت فجأة حقيقة أخرى غير عمود صحافة. وبفضل أصدقاء. استطع التقاء فلسطيني في جرونوبل... يعيش هنا في قلب جبال الألب منذ سنوات عديدة دون إمكانية العودة إلى وطنه. اتصاله الوحيد مع زوجته وأطفاله هو مجرد اتصال هاتفي يومي.

<u>انه لأمر عجيب أن لا تتمكن من العودة إلى وطنك. هل هذا ممكن؟ في هذا العالم؟ من الذي يقود هذه الكائنات؟ ما معنى حدود مغلقة؟</u>

الرابعة صباحاً اصطحبتني آن إلى أمام الحافلة. والتزمت بدقة بتعليمات ريجيس، فلا أحمل إلا حقيبة صغيرة ستسافر معي في الطائرة. موعدنا في المطار حيث ستقلع الطائرة على الواحدة بعد الظهر. رحلة على متن طائرة إيرفرانس للقاهرة. ثم أضاف ريجيس: بعد القاهرة، المجهول. تصورنا سيناريو يمكننا من اجتياز الحدود المصرية الفلسطينية. ستقلنا سيارة أجرة بعد ليلة نقضيها في فندق بالقاهرة ثم تمضي بنا السفينة إلى حدود رفح.

نعلم أن هذه الحدود مغلقة منذ عدة أيام. ونعلم أننا ندخل في خضم الانتخابات التشريعية الإسرائيلية. كم كنا محظوظين لأن الحدود فتحت لهذه المجموعة الصغيرة من أطباء للمساعدة.

رسالتنا مزدوجة: الاستمرار في إنشاء العيادة في غزة، الاستماع للجرحى والمصابين والمتماثلين للشفاء، والذين يموتون والمتعبين واليائسين والغاضبين والجوعى ومن لم يتبق لهم أسرة.

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

يريد ريجيس محاولة الدخول في هذا الحي من العالم، حيث من المحتمل أن تساهم الأحداث في منطق آخر. ليس من المستحيل أن هذه الحدود المغلقة اليوم قد تفتح في الغد. يجب أن تكون هناك أمام الحاجز وأن تأمل وأن تعتقد وأن تناضل، مع بعض التوصيات من السفارة وكل الطرق الملتوية والمعارف ذوي النفوذ سواء قلوا أو كثروا. ريجيس في المطار، الهاتف ملتصق بأذنه ومعه هذه الحقيبة الكبيرة يجرها ثقيلة. وستراتنا الأربع الواقية من الرصاص بصفائحها المعدنية التي من المفترض أن تصمد أمام نار الدبابات. يا لها من معدات غريبة. أشعر بالفضول من هذا الطرد. كيف سنتمكن من عبور الجمارك مع كل هذه الغرائب. وصل فرنسوا جيرو. انه رجل هادئ أعتقد أنه من المناسب أن يعيش في مرتفعات اللوار العليا وأن يكون طبيباً. احتجت فقط إلى بضع دقائق لكي أقنع نفسي أن الأشياء ستسير على ما يرام برفقته. تأخر مهدي، مصورنا. مهدي حالة فريدة من نوعها، فهو يشبه المصارع ولكنه شخص لطيف جداً. مهدي مغربي الأصل، صلب كالصخرة لكنه حساس كالطفل، نرى ذلك في صوره حيث يختلط العنف بالنعومة. سيكونون رفقائي في هذه المغامرة الغريبة.

مهدي

حليق الرأس، عنق ضخم، جسد مصارع من الوزن الثقيل، صخرة، في العراء يروي لي: "مهدي فدواش – يهجئ اسمه بعناية، واحد وأربعين سنة، أنا مغربي الأصل و ما شاء الله! أنا مصور صحفي في وكالة الصحافة الفرنسية. بدأت أولاً بالكتابة لأن الأماكن المخصصة للصور باهظة الثمن. عملت أيضاً لصالح صحيفة هيومنتي ثم (vsd) حتى استطعت الحصول على بطاقة الصحافة ثم عملت في وكالة الصحافة الفرنسية في روان إلا أنني كنت دائماً أرغب وأريد أن أصبح مصوراً. اعتقدت أن الكتابة محدودة جداً. كنا دائماً نكتب الشيء ذاته، كانت التواريخ تتغير فقط وعدد المشاركين في المسيرة واليافطات. كان ذلك يشبه النسخ واللصق. طبعاً كان يمكن أن نضيف بعض الألوان على ما نكتبه لكن المقالات كانت تقرأ ثم تعاد قراءتها، تصحح وتعدل. أما الصور فتكتبها كما تريد، لا يستطيع أحد أن يعدل عليها، لا يمكن أن تحذف منها أي تفصيل. هكذا بدأت بمساعدة والدي.
في 1998 سافرت إلى البلقان وصورت أول اللاجئين من ضحايا الحرب مع الصرب. عندما رأيت هؤلاء الناس يصلون مصابين ومصدومين، رغبت في أن أذهب من حيث أتوا. اعتقدت أنهم تركوا وراءهم الكثير، وأردت أن أكتشف ما هناك من المنبع. أردت أن أكتشف ما الذي دفعهم إلى الخروج. هناك، تدبرت نفسي حسب ما استطعت مع الجنود قائلاً لهم أنني أعمل لصالح هذه الوكالة أو تلك. كنت أعلم أنهم لا يستطيعون التحقق من ذلك وهكذا استطعت أن التقط أولى صوري. ثم قمت برحلات أخرى دون أن أهتم بإمكانية بيع صوري. كان هدفي أن أكتسب الخبرة. ذهبت إلى فلسطين في الانتفاضة الأولى واكتشفت أول الفلسطينيين في الأردن. لقد فتحوا عيني على معاناتهم ثم تبعتهم إلى رام الله ونابلس وغزة. ذهبت أيضاً إلى أفريقيا، إلى سيراليون وليبيريا. اعتقدت أنني أستطيع أن أعبر عن نفسي في هذه المناطق الممزقة، كانت صوري تحدثني وكنت أكتب كثيراً. ثم جاء دور العراق حيث دخلته بطريقة غير مشروعة عبر كردستان تركيا. عشت لحظات انتظار طويلة، نحو ثلاثة أشهر كان علي أن

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
info@helpdoctors.org : بريد الكتروني   www.helpdoctors.org : صفحة الكترونية
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

أتفاوض خلالها مع من يعبرون الحدود، ولكن أيضاً مع الوكالة التي أعمل لصالحها. التي لم ترد أن يخاطر صحفيوها. لاحقاً دخلت إلى الفلوجة مع الأمريكان. كان الضرب شديداً، شديداً جداً وقوياً جداً وتنقلت في جنوب البلاد كله وذهبت إلى البصرة بعد سقوط صدام حسين، في ذلك الوقت اختطف عدد من الأطباء واكتشفت مستشفى البصرة: الجرحى والمرضى ممن لم يستطع أحد تخفيف آلامهم وكان هناك عجز كبير في الأطباء والممرضين. بعد هذه الرحلة، أسست منظمة غير حكومية خاصة بي وأسميها "أنظروا" لتكون شاهداً على آلام الإنسانية. في 2005 اكتشفت المجاعة في النيجر لم أكن أعرف فظاعة البطون الخاوية. كل هؤلاء الأطفال الذين نراهم ثم يموتون في اليوم التالي. ذهبت إلى الصومال رغم أن الكل نصحني أن لا أذهب. هناك الحرب والجفاف والمجاعة. وعندما اجتزت الحدود وقعت على محاربي الشريعة ولحسن الحظ كان بعضهم يتكلم العربية وحصل تناغم بيننا. وهكذا حصلت على مرافقة من عشرين رجلاً مسلحاً اصطحبوني حيثما أردت الذهاب. رأيت عشرات الأطفال يموتون في أكواخ كانت تستعمل كمستشفيات بدون أية تجهيزات. خلف قصص الحذر والعواطف هذه، كان اللقاء مع أطباء للمساعدة طبيعياً، بديهياً. حدثني ريجيس عن منظمته، وهكذا بدأت المغامرة في نابلس ثم بنغلادش وغزة... أعتقد أنني لا أستطيع أن أصدق كل ما أقرأه. أنه يجب أن أري بأم عيني. هذا يعني أنني لا أثق بكل ما يرويه زملائي الصحفيين، لكنني أستصعب جداً تخيل أن الإنسان قادر على أن يكون بهذا السوء، بهذه القسوة، أريد أن أكون متفائلاً، أن أحتفظ بالأمل، أن أقول لنفسي أنني سأري هناك أشياء أقل كارثية، وبالطبع خاب أملي جداً، فأنا أرى دائماً البشر ينفصلون عن بشريتهم. الأنانية تحكم العالم.

أما عن المجازفة؟ نعم، نعم أنا خائف وأعرف أنه لا يجب أن نفقد الخوف أبداً. بمجرد أن تتوقف عن الخوف، يجب أن تخاف من جديد، وإلا فإنك تخاطر بحياتك. ذات يوم كنت في العراق مع مساعدي على أرض علقت فيها دبابات دمرتها قوات التحالف، ولحسن الحظ تذكرت أن هذا المكان مليء بالألغام. وأنا عائد أدراجي كدت أن أمشي فوق أحد هذه الألغام ونبهت مساعدي الذي ارتعب مثلي. عدنا إلى السيارة بحذر شديد. في مرة أخرى، كنت في بغداد ليلاً بسيارة مصفحة علقت بالرمل فأطلق علينا مسلحون النار، وكنت أرى ساقي الجندي الأمريكي الواقف في برجه، كان يرتجف كالورقة، كان يطلق النار بلا توقف وكنت مغطى بالرصاصات الفارغة. في هذه اللحظات، مهم جداً أن تخاف. وفي مرة أخرى في أفريقيا مكنني الخوف من أن أروي قصصاً لمجموعة من المحاربين أوهمتهم أنني تركت أشياء لهم في الجهة الأخرى من النهر، فقفزت في نهر ممتلئ بالتماسيح. فمن بين أسوء الخيارين، فضلت أن أختار التماسيح.

بالنسبة لي، من المهم المشاركة في أطباء للمساعدة، من المهم الإدلاء بالشهادات، من المهم أن نكسر حاجز الصمت. حتى وإن لم أؤمن بالموضوعية، أعتقد أنه يجب أن نبقى موضوعيين وهو شيء مختلف عن أن تكون محايداً.

أن تكون موضوعياً، هو أن تحدد موقفك من الأشياء. غالباً ما أعتقد أنه يجب أن أتوقف، وخاصة الآن أن لي ابن يبلغ من العمر ثلاث سنوات ونصف. لم أعد وحيداً حقاً ولكنني لا أستطيع. الأمر أقوى مني. لا أستطيع أن أمنع نفسي من الذهاب إلى هذه الأماكن التي كتب فيها التاريخ. كانت بعثة غزة قاسية جداً، صور قوية، عنيفة. مازلت

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا

صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

أرى حاويات القمامة مليئة بالأطراف، لأن الجراحين لم يتوقفوا عن البتر. كانوا يبترون باستمرار حتى أنني تساءلت عما سأراه عندما أعود لاحقاً: عالم من ناس يمشون بعكاكيز. عشت في غزة وضعاً غريباً لأن العديد من الناس اعتقدوا أنني طبيب. كان يجب أن أتصرف، وبما أنه لم يكن ممكنا الذهاب إلى هناك بصفتي صحفي، كنت أحد الأطباء للمساعدة وهي كانت نصف كذبة بما أنني جزء لا يتجزأ من هذه المنظمة. دعيت لأرى فتاة صغيرة، ربما كان عمرها ثمان سنوات. دخلت مع الأطباء إلى غرفة العمليات. كانت ممدة ومغطاة حتى صدرها وأكياس المحاليل مغروسة في جسدها. وجهها شاحب جداً أقرب إلى الرمادي وتتنفس بالكاد. رفع أحد الجراحين الغطاء عنها للحظة وهنا رأيت الرعب المطلق: من أسفل الظهر وحتى الكاحلين كانت مفتوحة كالكتاب، كان لحمها مليئاً بالشظايا. سوف تموت وهذا لا يطاق. وهناك فتاة أخرى تنظر إلي وهي ممدة على حمالة، تبدو تائهة سألتها: أين والداك؟ فبدأت فوراً بالصراخ والبكاء. علمت بعد ذلك بقليل أنها أخرجت من أنقاض بيتها حيث بقيت أكثر من 24 ساعة إلى جانب جثث والديها وأخيها وساقها مفتوحة...

في هذه الحرب، تحدث الناس عن ضربات جراحية. يا لها من كذبة! نحن، بإمكاننا أن نشهد إنهن عجائز وأطفال وناس عاديون وأبداً ليسوا شبابا محاربين من يملؤن المشارح والمستشفيات، كان يجب أن آتي إلى غزة، كان يجب أن أعود، وإن أوقفنا على الحدود. هذا أمر مهم. إن لم تحاول شيئاً فلن تحصل على أي شيء. إن أردنا أن نشهد، يجب أن نكون حاضرين حيث يجري التاريخ، يجب أن نرفض أن تكون الحروب عمياء.

أنا مسلم مؤمن وممارس لإسلامي. أعتقد أن الله يريد أن يبتلينا، ويجازينا على كل خير نصنعه ويجازينا أيضاً على الصبر على البلاء. نحن نؤمن بالجنة والنار. لو أن الله خلق البشر كلهم طيبين لما كان هناك نار. لكن الله خلق الناس أحراراً لكي يقرروا ما يصنعون. خلق الجنة لمن يريدونها. في هذا الإطار فإن مصير غزة فظيع... ومن هنا تأتي أهمية المشاركة في مصير الآخرين.

مطار القاهرة

10 فبراير

الوقت متأخر. وقد جرت الرحلة كالمعتاد، بطيئة وسريعة جداً. مهدي، الدكتور الطيب، أمضى وقته في الحديث مع سمراء جميلة. أما أنا فبقيت في مقعدي إلى جانب لاعب كرة سلة. أنا مندهش جداً لأن أحداً لم يسألنا عن هذه السترالغريبة الواقية من الرصاص والتي لا توجد عادة في حقائب السياح. يقع فندقنا قرب المطار، لكننا ذهبنا إلى السوق، إلى "نجيب محفوظ " وهو مطعم يحمل اسم الكاتب الشهير لنتذوق حمام القاهرة. ليلة قصيرة لأن تاكسي أيمن سيأتي ليقلنا على الرابعة صباحاً. نظرت إلى الخارطة. علينا أن نعبر قناة السويس وهذه الطريق الطويلة نحو رفح على ساحل البحر والصحراء.

نقترب الآن من هذه الحدود الشهيرة في رفح. لم أعد أنظر إلى المشاهد من النافذة. ننتظر فقط هذه اللحظة التي سأرى فيها هذا البلد الذي تدور فيه الحرب، هذا البلد الذي سمعت اسمه في الراديو والتلفزيون مائة مرة، ألف مرة، الذي لا يوجد خارج ضجيج السلاح هذا. ماذا سأرى؟ ما الحرب وما السلام؟ استوقفنا رجال مسلحون بانتظام. يجب

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

أن نظهر جوازاتنا وأن نبرز رسائل التوصية المترجمة للعربية يجب أن نبتسم. في كل مرة نمر بسلام وعندما يقطع ضجيج المحرك الهدوء، انظر إلى الرمال وأشاهد خيام البدو والجمال وأحياناً البحر. يذكرني ذلك بموسى. يراودني شعور أنه من السهل الذهاب إلى قطاع غزة. يكفي أن تتقدم وأن تؤمن بذلك. ثم وصلنا أمام بوابة صفراء من الباطون وكأن الطريق قطعت فجأة. يرفرف العلم المصري على عامود مركزي، عربات مصفحة تقف على الجانبين، جنود بلباس أسود ودروع وخوذ غريبة الشكل، وكأنها خرجت من رسومات أبي سمبل وجنود آخرون باللون الكاكي وآخرون باللباس المدني، تظهر أعقاب مسدساتهم من تحت الحزام، المخابرات ، يفضل ألا تحتك بهم.

بابان أسودان من الحديد على اليسار وعلى اليمين يتحكمان بالدخول والخروج. لكن لا يبدوا أن أي سيارة تمر عبر هذا الحاجز. على الجانبين، خلف عربات الجيش، حقول وأشجار صغيرة، ربما كانت أشجار لوز تزهر بخجل. أوقفنا السيارة بالقرب من بضع سيارات مدنية تفيض أسطحها بحقائق السفر. وعلى حافة جدار نساء ورجال وبعض الأطفال يجلسون بهدوء وينتظرون. يبدو أن وصولنا أيقظهم بالكاد نزلنا من سيارتنا حتى توجهنا نحو البوابة بأوراقنا لنقدمها لجندي...

طبعاً سندخل، على الأقل هذا ما اعتقده.

حمالو رفح

نرتدي أربعتنا قميص أطباء للمساعدة وتقدم مهدي ليتفاوض مع الشرطي باللغة العربية. نعم نحمل رسائل التوصية، نعم نستطيع أن نبرز جوازات سفرنا وكل الصور الممكنة... اقترب منا رجل بلباس رسمي وأحذية ملمعة قال لنا أنه هنا منذ ستة أيام وأنه فلسطيني وأنه منع من الدخول. يقول إنه ينام تحت شجرة. يقول أيضاً إنه يريد رؤية أمه وإنه يجب أن نساعده لأننا أطباء للمساعدة. فصار يدور حولنا متمتماً أطباء للمساعدة. أوراقنا بين يدي رجل بزي مدني عادي، وكأنه يشبه صبي جزار بمركز تجاري. نسمع من حولنا رنات الهاتف المحمول، يسمونه في غزة الجوال ورناته لأم كلثوم بدلاً من رسالة إليز أو كرستوف ولايم. طبعاً أوراقنا غير مناسبة يجب أن ترسل السفارة فاكساً... عشر مرات عشرين مرة يرسل هذا الفاكس إلى مكان غير محتمل، ودائماً هو ليس المكان المناسب لأن أحداً لا يتسلمه، لكن أحداً أيضاً لا يريد أن يعطينا الرقم المطلوب. هذه هي اللعبة، اللعبة الغبية التي لعبها كثيراً مِن مَن يملكون جزءاً من السلطة. الناس والمشاهد لا تتغير. الشمس تتحكم بالموقف. غير بعيد، خلف باب من الباطون، نرى بيوت رفح. يا له من أمر غريب، كل هؤلاء الناس حولنا يريدون فقط العودة إلى بيوتهم، لكن لا يستطيعون. على يمين البوابة بيت من الصفيح تقدم فيه القهوة في أكواب مشكوك فيها. يوجد فيها أيضاً بعض البسكويت. على حافة الطريق، نساء يرتدين السواد، لا يرى منهن إلا لمعان الأعين تحت البرقع، يجلسن على الأرض. تبعن حليب الماعز في زجاجات بلاستيكية قديمة تهش بأيديهن الذباب الذي يحط على حاويات التمر واللوز.

وفما عدا حركة التاكسيات وعربات الجيش المصفحة "بلون الرمل" تمر الحمير وعربات صغيرة.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

أطفال يقودون الحمير والعربات، يمرون أمام الجنود، يتوجهون نحو الأشجار المثمرة. فوق مراب الصفيح، توجد قاعة للصلاة، مسجد غير مؤهل نرى فيه جنوداً يخلعون أحذيتهم، لكن يحتفظون بأسلحتهم. انتظروا، يجب أن تنتظروا. كل ما يمرر الوقت، رنات التلفون، وصول ضابط يعيد لنا جوازاتنا غير قادر على أن يخبرنا بما سيحصل. المعبر الحدودي يغلق الساعة الخامسة مساءاً. نعم غداً سنكون هنا وهكذا كل يوم لمدة ستة أيام. علمنا بعد بضعة أسابيع أن بعض البعثات الإنسانية قد انتظرت لمدة خمسين يوماً وحتى حاولت الإضراب عن الطعام.

عدنا في المساء إلى العريش على بعد 40 كيلومترا من رفح، المدينة الميتة. العريش مدينة سياحية يحبها المصريون في الصيف. أمام البحر شاطئين رمليين كبيرين: فنادق وشاليهات، كما يسمونها. إنها قبيحة جداً. الفندق الذي ذهبنا إليه شبه فارغ، لكنه باهظ جداً. الجمهور مكون من بضع غربين "صحفيين، منظمات غير حكومية، ومغامرين. ثم رجال شرطة مصريون بالزي المدني. على طاولات الحانة التي نتناول فيها، البيرة لا يخفي أحد نفسه، توضع الأسلحة باستهتار إلى جانب الحاسوب. أما نحن، فنرسل الرسائل الالكترونية ونتصل بالهاتف بالجهة الأخرى من الحدود والفلسطينيون ينتظرونا يقلقون، يفرغ صبرهم، ماذا سيحدث لعيادة أطباء للمساعدة جنوب قطاع غزة؟ أي سمسم سيفتح تلك الأبواب؟ تناولنا وجبة في مطعم "عزيز" في البلد. بلدة غريبة لا نساء فيها، لا ضحك فيها رغم أن البحر فيها أجمل من كل أحلام البحر المتوسط.

مع بزوغ الفجر، توجهنا مرة أخرى إلى بوابة رفح نطلب من الجنود المرور. نمر من جندي إلى آخر، من رتبة إلى أخرى، نصافح يد جنرال مزيف. التقينا بأطباء مصريين يريدون الدخول مثلنا. من بينهم أناس تصور كل ما يجري. هذه الطبيبة الشابة التي تغطي شعرها جزئياً جميلة جداً وتضفي على هذا القفر بعض الإنسانية. التقيت أيضاً بطوني، مصري شغوف ببدلير. يقول إنه طبيب نفسي يريد أيضاً الدخول إلى غزة لأنه بدأ بجمع أغاني شعبية من فلسطين. سألته إن كان الناس يغنون فعلاً في الجهة الأخرى من الحاجز؟ إنه يرجو ذلك. اقتادني بحذر إلى الحقول لأرى رفح من فوق مرتفع. أراني أيضاً نفقاً أغلق حديثاً. هذه الأنفاق الشهيرة التي أصبحت شرايين قطاع غزة. أنفاق حفرت في الرمل، حفرها أطفال يقول أكثرهم تفاؤلاً إنهم يتقاضون مائة دولار للمتر الواحد، هناك الكثير من الأنفاق في هذه المنطقة. لكن في شهر فبراير، ورغم أن حركة البضائع لا تتوقف، إلا أنها تكلف ألف دولار لمن يريد أن يعبر الحدود من خلال الأنفاق. كما يأتي القصف بانتظام ليذكر أن هذه الطريق غير قانونية، يا له من نفاق! الكل يعرف مكانها ومن يحفرها وإلى أين تنتهي وما يمر عبرها، حفاضات أطفال ودراجات ومنظفات، أموال وتلفزيونات، غسالات وثلاجات، وطبعاً الأسلحة... كيف يمكن تفسير أن الجيش الإسرائيلي القوي لم يستطع أن يقضي على هذه الطرق التحت أرضية التي تمثل اقتصاداً سنوياً بمئات الآلاف من الدولارات. بين هذه الشجيرات الصغيرة توجد، حفرة ردمها الجنود بالحجارة.

رفح مرئية بوضوح على بعد بضع مئات من الأمتار. وعند عودتنا إلى البوابة، تعرفت على عبير. يبدوا أنها تبلغ من العمر ثلاثين وكأنها نجمة مشهورة. ما أجملها عبير حبيب، متزوجة، لديها ثلاثة أطفال وزوجها هنا بجانبها يمضغ بجد قطعة من الشوكولاتة، ثم يدخن سيجارة. عندما ينتهي منها يتناول قطعة بسكويت، وهكذا إلى ما لا نهاية. يهز رأسه قائلاً: ضع نفسك أمام البوابة، أجبرهم على فتحها، أما نحن، فلا أحد يستمع لنا ويقولون لنا اذهبوا إلى الجحيم.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

عبير ترتدي لباساً غريباً : أحذية بكعب عال وبنطالون واسع وسترة من الجلد، كما ترتدي غطاء رأس بنفسجي وتغطي أعينها أحياناً خلف نظارات عريضة جداً. تحمل عبير جواز سفر كندي، فرت يوم 8 يناير إلى الأردن مع جزء من عائلتها أثناء الحرب. وهنا أمام بوابة رفح السوداء تلعن من يرفضون عودتها إلى بيتها. عبير سليطة اللسان تأتي باستمرار لتحادث السجانين الذين يحملون مفاتيح سجن غزة. كلما زادت حرارة الشمس كلما زاد الجو توتراً. نادية، روسية فلسطينية شابة تدعي أنها تبلغ أكثر من 20 سنة، تتناقش بحدة مع عبير حبيب، تغطي رأسها بالكاد كوفية، عيونها خضراء لا تعرف الابتسامة. تبدو قاسية كالصخر وكأنها مراهقة حانقة دائماً. عندما سألتها: هل تخافين أحياناً في هذا البلد؟ تنظر إليّ ملياً في عيني مباشرة ثم تقول بلا تردد: أنا لا أخشى شيئاً أبداً.

حوالي الساعة الواحدة ظهراً، كنا جميعاً نعتقد أن الجنود يتسلون بنا. فردت الفتاتان والأطفال بطانية أمام البوابة وجلس الجميع. أخرج مهدي الكاميرا فأتى الجنود مسرعين، ممنوع أن تقف هذه المجموعة الصغيرة وتسد البوابة حتى وإن كانت مغلقة ولا أحد يمر. ازداد التوتر وانتقلت عبير ونادية من الضحك إلى الدموع وهن يشتمن الجنود ورجال الشرطة المصريين الذين أرادوا تفادي التصعيد... وعود جديدة، رجل بزي مدني يظهر ويهدئ الجميع. يعيد النظر في جوازات السفر ويعِد بدراسة المسألة... انتظروا، إنها الكلمة السحرية... ننتظر. صرخ رجل، هذا كل ما نفعله، الانتظار. ثم يضيف: أنا أكره المصريين، لماذا لا أستطيع أن أذهب لأرى أطفالي؟ بيتي على بعد بضعة كيلومترات من هنا. انتظار. كثيرون يدخنون. بدأت أتعود على القهوة سكر زيادة وأبدل بالشاي... إنه موقف فوق واقعي. ثلاثة أيام أخرى سنعيش هذا الانتظار اللامفهوم أمام باب. وصل قادمون جدد (أطباء مغاربة وكوريون وبعض المجانين الذين تجتذبهم ساحات الحرب) ليحركوا المشهد من جديد. التقينا بـ ماتهاري، شابة غريبة، وبعد ثانيتين من لقاءنا، تظهر لنا هويتها الخفية، إنها صحفية تحقق حول الشباب الأوربيين الذين يعيشون الجهاد. نعم، نعم لديها خطة للمرور إذا لم تفتح الحدود، همست لنا بكلمة نفق. نظرت إليها ببنطالونها وقميصها الأبيضين، بدأت أشك فيها عندما ذهبت تسأل الدكتور فرنسوا عن مكان خروج الأنفاق. هناك أيضاً من سميناه بوفالوا بيل، فرنسي يشارك في الصلاة مع مهدي، وهو يريد أيضاً أن يمر بطريقة غير شرعية، يريد أن يصور الفلسطينيين في غزة. أنا مدين لهم بذلك. شعره طويل ولكنه ليس منفراً، يبدو فقط أنه لا يفهم الموقف وكأنه يخرج من رواية لبوكفسكي.

من وقت لآخر تأتي سيارات إسعاف وتقف أمام البوابة. في الداخل، هناك بالطبع مريض أو مريضين ويبدو أنهم الوحيدون المرخص لهم بالدخول، لكن الأمر غير المعقول، سيارة الإسعاف مليئة بمواد مختلفة، أما المريض فبالكاد يجد مكانا للجلوس بين ثلاجة وتلفزيونين وكرتونة من المعلبات أو كراسي أو غسالة. بالقرب منا رجل وابنته أجريت لها عملية جراحية ينتظران. بدون سيارة إسعاف، لن يمروا. وهكذا أيضاً رجل وزوجته الحامل التي تقف بصعوبة أمام البوابة حيث يتفاوض زوجها. الساعة الخامسة يجمع الكل أمتعتهم والهزيمة تبدو على وجوههم وآثار دموع، عودة إلى التاكسيات المنتظرة. مرة أخرى إلى العريش... هذه المرة أعد لنا السائق مفاجأة. أخذنا إلى الملعب البلدي حيث تتكدس هناك شاحنات، مئات من الشاحنات الكبيرة، المساعدات الدولية لغزة، شاحنات جزائرية وفرنسية وتونسية ومصرية مازالت تحمل الملصقات على شوادرها. أنقذوا أطفال غزة... يعتقد السائق أن بإمكاننا أن نلتقط بعض الصور. لكن بمجرد أن نزلنا من السيارة ، وجه له مدني لا يخفي مسدساً ضخماً تحت حزامه السباب والشتم... لا

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

يمكن السماح لشهود أن يروا هذه الشاحنات المبددة التي تحتوي بعضها على مواد قابلة للتلف، بانتظار افتتاح فرضي للحدود. سوف تفتح الحدود جزئياً بعد أسابيع. هذه المرة استأجرنا بيتاً واشترينا بعض البطانيات والقهوة، كل يوم ستكون نفس المسرحية حتى مغادرتنا. أردنا الاستقرار أمام بوابة رفح وأن نتشارك الانتظار مع القادمين الجدد: منظمات حقوق الإنسان، أطباء، أصدقاء فلسطين... وكل يوم يتجدد بعض الأمل، وفي النهاية خيبة الأمل. لا يريد المصريون فتح بوابة رفح رسمياً، يبدو أنهم يفضلون الاكتفاء بغض الطرف عن التهريب الذي يجري على بعد مئات الأمتار من المعبر عبر الأنفاق. وهكذا فإن السوق السوداء تتنظم في غزة، فمثلاً أنبوب الغاز في غزة يساوي مائة ضعف سعره في الطرف الفلسطيني من الحدود.

لكل يوم وتيرته الخاصة، الشيء الوحيد المؤكد ، هو أن الصلاة تقطع عصبية أو خمول الانتظار. يتزايد عدد الفلسطينيين الذين يمكثون أمام البوابة وتزداد عصبيتهم. سمعت عبير تتحدث عن إضراب عن الطعام. وكلما مرت سيارة رسمية حدثت ثورة صغيرة. في وسط النهار تأتي النساء والأطفال يبكون أمام البوابة مصممين على عدم التزحزح. تفرد بطانية على الأرض وبسرعة يرتفع الصوت. تأتي سيارة ويتدخل الجنود ، تشتمهم عبير ثم تدفع نادية، تناضل وتصرخ ، يقترب الرجال... ثم تخمد كيف لها أن تقاوم أمام هذه الجدران المكونة من الجنود الذين يحرسون الحدود نحن حوالي 40 شخصاً ممن يريدون المرور لكن جيشاً حقيقياً يمنعنا من ذلك. وفي حركة يائسة تنزلق عبير في ثغرة عندما فتحت البوابة فقبض عليها فوراً ودفعت بشدة (ولكن بحذر لأن هناك شهود كثر) أصيبت ذراعها بكدمات. حاولنا نحن أن نتصل بالصحفيين، أن نقول إن هذا ظلم، لكننا مازلنا مندهشين من أن أحداً مازال يريد أن يستمع لمثل هذه الأخبار. ففي غزة مازالت الحرب قائمة، نرى سحباً من الدخان الأسود تمتد في السماء. قصف؟

تحدثت مع جمال الذي ينتظر ما هو غير محتمل. لقد غادر قبيل الحرب ليدرس في روسيا، وها هو تائه في هذا المكان المقطوع. وفي ثورة غضب قال لي: ما أريده هو أن أستطيع يوماً ما أن أقدم لأطفالي جواز سفر آخر غير الجواز الفلسطيني... حتى إنني سميتهم بأسماء أجنبية ليتمكنوا من السفر. أما أنا، فلا أستطيع حتى أن أعود إلى سجني. لم أر أي فرد من عائلتي منذ ثلاثة أشهر. كل ما أستطيع فعله هو سماع صوت ابني بالتلفون. ابني يبلغ من العمر ثلاثة أعوام فقط ، لكنه يستطيع أن يميز صوت طائرة إف 16 ، هذه الطائرة التي تقصف.

ثم غير الحديث وطلب مني بصفتي محللا نفسيا تشخيصاً لسركوزي، مردداً على أسماعي إلى ما لا نهاية ، أن البطل الفرنسي الأبدي هو جاك شيراك الذي يقلده في مشيته عندما دفعه الجنود الإسرائيليين – وكانت هذه أول مرة أسمع فيها هذه الكلمة القاسية: "يهود" أتريدون أن أعود إلى طائرتي" سنذهب معاً. وكذلك علي حسين الذي يعمل في الولايات المتحدة، عاد ليرى زوجته وأولاده. "لماذا يحتجزنا المصريون سجناء؟" نعلم أنهم يريدون الضغط على حماس للتوصل إلى هدنة مع الفلسطينيين لكن نحن، هذه ليست مشكلتنا، نريد فقط أن نكون مع عائلاتنا". على بعد خطوات، تقدمت إيمان أبو دقة، معلمة من غزة، هربت في بداية الحرب ومنذ ذلك الوقت تنتظر: "إنها لعنة". الجديد أتانا من مهدي، إننا نسمع صوته عند الأذان. وعند الصلاة يذهب الجنود بانضباط. حدثني مهدي لاحقاً كيف أن إمام مسجد في خان يونس أثناء الحرب في غزة وفي صلاة الجمعة ، شُكِر أطباء للمساعدة لمساعدتهم للجرحى. إنه المساء قبل الأخير، العودة إلى العريش مرة أخرى بخفي حنين، بمعنويات في الحضيض. لم يعد ريجيس يدري ما

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

يقوله لمن ينتظروننا في الجهة الأخرى من الحدود، ولمن يحتاجون أطباء للمساعدة، لم نكن نحب كثيراً شاورما أو كباب أو حمص مطعم عزيز. بالقرب من البحر، في ذلك المساء، نظرت إلى أضواء في الماء. سفينة حربية أم قارب صيد؟ هناك في غزة، حتى الصيادين أصبحوا قلة، فالبوارج الإسرائيلية تجبرهم على البقاء قرب الشاطئ. الميناء (بتمويل من الاتحاد الأوربي) مدمر، تماماً كالمطار. نعم، كانت غزة ذات يوم مكاناً ودوداً. اليوم الجمعة يوم عطلة، يوم الصلاة، ألهذا السبب لا نستطيع اليوم؟ وغداً؟ غداً إن شاء الله.

لا غداً ولا بعد غد... أطباء من مستشفى في باريس وآخرون من المغرب ومن كوريا وطاقمنا وأطباء مصريون، كلهم أرادوا وأصروا أن نرسل احتجاجاً رسمياً. سيحرر الاحتجاج بأربع لغات، بدون فائدة طبعاً. لكننا نعتقد أن هناك فائدة دائماً، حتى وإن ضاعت الكلمات في رمال الصحراء. في مطعم العريش، حيث يمكن تناول السمك الطازج، نستعد للمغادرة. لقد انتهى أمر غزة، يا له من أمر حزين... وصل طاقم فرنسي، نساء شابات يضعن الكحل في أعينهن، شبان ينتمون كلهم لحركة صداقة فلسطينية. يظنون طبعاً أن بإمكانهم المرور عبر بوابة رفح باغتتهم وهم ينظرون إلى ريجيس باحترام حقيقي: نعم، إنه هو بلحمه وشحمه، من كان تحت القنابل في مستشفى القدس. نتمنى لهم حظاً وافراً. سيارة المرسيدس المصرية القديمة تنتظرنا، وفي القاهرة ينتظرنا أصدقاء, عندما صعدت تلك السيارة قلت لنفسي: قريباً بالتأكيد.

غزة على الطريق مجدداً – طبعاً

كان علينا أن ننتظر شهر مارس، 28 مارس، لأجد نفسي في الطائرة باتجاه غزة. ونتيجة لعمل فعال جداً في القنصلية الفرنسية بالقدس، حصلنا على تنسيق مع إسرائيل سيمكننا من الدخول إلى غزة، هذه المرة عبر نقطة الحدود في إيرز. وكانت المفاجأة. لم يكن لدينا متسع من الوقت للتحضير أو التفكير.
أعترف أنني لم أكن فخوراً جداً في لحظة المغادرة، لطالما ذكر لي ريجيس كيفية الاستقبال الذي يحضره لنا الأمن الإسرائيلي، لدرجة أنني، ورغم أني لم أرتكب شيئاً، شعرت بنفسي مذنبا. كان طاقمنا مختلفاً هذه المرة، ريجيس الرئيس و الدكتورة ماري_لور بري وأنا. على أنني محلل نفسي. رحلة ليلية وكتاب كبير لتمرير وقت الانتظار. ترك ريجيس الستر الواقية من الرصاص، لكنه أخذ هاتفه الذي يعمل بالقمر الصناعي، فيما لو...

الدكتورة ماري_لور بري

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

إن كان هناك شخصية مهمة في هذا العالم المغطى والمغتصب في غزة، فإن ماري لور بري تجسد هذه الشخصية. فغزة ليست عالم بدون نساء، إنه عالم معاناة النساء، وماري لور كانت قادرة فوراً على طمأنة من كن نريد لقاءهن. ولأكثر من مرة استطعنا الدخول إلى بيوت لأن طاقمنا الصغير يشمل بين صفوفه الدكتورة ومترجمتنا أسياً.

كانت ماري لور طبيبة عامة شابة، سمراء الشعر، حساسة وأم لثلاثة أطفال, تبدو وكأنها خارجة من رواية شرقية. أتت إلى غزة للتحضير للعيادة والمساهمة في هذه المهمة التي تبدوا هينة جداً لكنها شديدة الصعوبة في الحقيقة، وهي الإنصات، والاستماع. لم يكن اثنان للاستماع لهذا الحدث المعروض كثيراً.

"ولدت في باريس وما يميزني عن غيري هو أن أمي فيتنامية. وصلت جدتي الفيتنامية إلى فرنسا في التاسعة عشر من عمرها هرباً من زوج فرض عليها" والغريب في الأمر أن ماري لور تخاطبها بصيغة الغائب وهذا ما يعطي هذه العبارة الجميلة: "كيف حالها يا جدتي". في ذكرياتي البعيدة أعرف أنني لطالما أردت أن أصبح طبيبة إنسانية، لكن الصورة وضحت في ذهني بعد أن شاهدت فيلماً. كان عمري ثماني أو تسع سنوات وكان اسم الفيلم "نُزل السعادة السادسة" وأعتقد أن الفيلم مأخوذ عن قصة حقيقية تروي ملحمة إمرأة أنقذت حياة مائة طفل صيني بنقلهم عبر البلد للفرار من المهاجمين اليابانيين. أردت فوراً أنا أيضاً أن أنتمي إلى تلك العائلة من المنقذين، من المعالجين. ومنذ بلغت الثالثة عشر، عملت في جمعيات كمتطوعة – لكن للأسف لم أكن موهوبة في المواد العلمية، لذلك تقدمت لدراسات أدبية وهذا لم يكن يخولني دراسة الطب. فكرت عندها بمهنة قاضي أطفال.

في ذلك الوقت، حدث لقاء حاسم. كنت أتحادث كثيراً مع أحد أصدقاء العائلة وهو طبيب نفسي فأعطاني هذه الرسالة البسيطة: يجب أن نحاول دائماً تحقيق أحلامنا وإلا سنندم طوال حياتنا. سمعته وصدقته، وفي النهاية نجحت في دراسة الطب، ثم قلبت الحياة كل مشاريعي فأنجبت أطفالاً مبكراً (لم أكن قد أنهيت دراستي بعد) وعندما بدأت أستعلم من جهة أطباء العالم أو أطباء بلا حدود، اكتشفت بسرعة أنه لا يمكنني أن أذهب في بعثات قصيرة. ثم سنحت لي فرصة الذهاب والعيش في بورنيو بإندونيسيا مع عائلتي لمدة سنتين ونصف. لكن لم يكن من السهل العمل مع الجمعيات المحلية، وبعد سنة من العودة إلى فرنسا سنحت لي فرصة العودة مرة أخرى إلى إندونيسيا مع عائلتي إلى جاكرتا هذه المرة وهنا التقيت بفريق صغر من أطباء العالم كان آتياً في مهمة استطلاعية في مدن الصفيح المحيطة بجاكرتا، وأيضاً لدى قبائل بونان في غابات بورنيو. كنت أتكلم الإندونيسية قليلاً وكنت متفرغة وكانت مشاريعهم تتناسب مع ما كنت أريد فعله. وهكذا وجدت لنفسي مكاناً ضمن الفريق. ثم في ديسمبر 2005 حدثت كارثة التسونامي فذهبت إلى بندا أتشي وهنا ادركت أنني كنت أحقق حلم طفولتي. كان لهذا الاندفاع للعمل الإنساني بعض الخروج عن المسار ولم أكن أغفل ذلك إلا أنني كنت أشعر أنني وجدت مكاني وأنني أعرف لماذا أنا هنا. ثم تأسست منظمة أطباء للمساعدة وأصبحت أمينة صندوقها. وبسرعة أتت المغامرة الفلسطينية. كانت أولى بعثاتي إلى نابلس حيث أنشأنا عيادة. لم تكن لدي أية أفكار مسبقة عن هذا الجزء من العالم، وبرفقة ريجيس غريغ وأيمن، بدا الأمر سهلاً ، ربما سهلاً أكثر من اللازم.

كان برفقتي مرشدون ممتازون، أيمن بحرارته وكرمه ساعدني على فهم نابلس وأعرافها، فهي منطقة يجب التريث فيها كثيراً. الأفضل طبعاً أن أتكلم اللغة، فهذا يخلق جواً من التبادل الغني فقد كانت علاقتي مختلفة جداً مع مرضاي في

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

إندونيسيا عندما بدأت أحادثهم باللغة الإندونيسية. غزة، إنها سابقة، حاولنا مرة الدخول إلى غزة لكننا بقينا محتجزين في إيرز، الفرق مع نابلس هو انه ورغم أن الحرب قد انتهت، فإن التوتر ما زال قائماً، قوياً جداً، واضحاً ومنهكاً. الناس هنا ليسوا في صحة جيدة لا بدنياً ولا معنوياً. عندما نخرج من نقطة حدود إيرز نشعر وكأننا نخرج من قسم الحراسة المشددة في السجون الفرنسية بأجهزة فحص المعادن والتفتيش والكاميرات، كل ذلك يجعلك تشعر بالخروج من سجن إلا أنني اندهشت من دقة التحليل وعمق الفكر لبعض الشخصيات التي التقينا بها، وتيقنت أن الالتقاء بالعالم الخارجي يبقي الأمل فيهم. لكننا غالباً ما نكون أمام أناس مشدوهين، يكتمون أنفاسهم ، مدمرين نفسياً. أتساءل دائماً كيف يمكن لهؤلاء الناس أن يفرضوا على آخرين كل هذه المعاناة في حين أن هناك الكثير من دواعي المعاناة في هذا العالم وكأن لا فائدة من التاريخ.

بالنسبة للنساء، فإن هذه معاناة إضافية حتى وإن فتحت كل من قابلتهن قلوبهن لنا بسهولة نسبية. أود أن أعود إلى هناك لأتكلم مع بعض الشابات ممن رأيتهن، مثل ابنة الدكتور وليد ، وقد كانت المرأة الوحيدة غير المحجبة... بالنسبة لي يعيش هؤلاء الناس كابوساً إن سجنهم كابوس حقيقي وواقع, أساسي أن يتمكنوا من الكلام الآن ، أن يحكوا لنا وأن يقدموا شهاداتهم. لقد رأينا مشاهد هستيرية يمكن تفهمها. عندما يكون الألم كبيراً لدرجة أن الكلام لا يخرج، فإن الجسد يعبر. شعرت ببلبلة شديدة عندما وقع عجوز باكياً بين ذراعينا ، رغم حيائه الشديد. طالما أن هؤلاء الناس ليسوا أحراراً، فعلينا الذهاب لهم الاستماع لهم. هذا واجب، أما عن الحلول؟ فهل هناك حل آخر غير الحرية؟ الحرية أن تجيء وتذهب... حرية العيش الطبيعي. تخيلت لو أن الأبواب فتحت فسيهرب أهل غزة جميعهم. أبداً، لقد عبروا كلهم قبل أي شيء آخر عن حبهم لأرضهم ولبلدهم. يريدون كلهم أن يعود الزمان الذي لم تكن فيه أسلحة قبل الحصار. ذلك الزمان عندما كانوا يعملون ويذهبون إلى السينما وإلى شاطئ البحر، يسافرون ويضحكون، يتاجرون ويلتقون بأصدقائهم. تقديم العلاج؟ العلاج يعني تخفيف الآلام البدنية أو المعنوية لشخص ما، أن تعيد له طيب الحياة. أن تكون طبيباً عاماً يسمح لك بأن تذهب إلى أبسط الأمور، أن تتمتع برؤية شاملة للإنسان. ومن بين المزايا الأخرى يتوجب أن يكون عندك الحس الجيد. أعمل الآن في بلدية باريس على موضوع الإدمان. وهو عمل على الجسد والروح على الإقصاء... في غزة وللأسف الشديد الكثير من الإقصاء.

من مطار بن غوريون إلى إيرز

"ما الغرض من زيارتك لإسرائيل؟" كانت هذه أول جملة سمعتها بعد نزولي من الطائرة في مطار بن غوريون في تل ابيب. كان ريجيس قد علّمنا ما يجب قوله، أن نتبنى جميعاً نفس الطريقة، أي أن نرد فقط على السؤال المطروح وأن لا نضيف أية إيضاحات تتخطى السؤال. كان الخروج سهلا جداً، أسئلة قليلة, يجب أن نقول أنها كانت الواحدة صباحاً وأننا كنا نشبه السياح إلى حد كبير. أقلنا تاكسي إلى القدس ، إلى الحي العربي. اجتزنا مناطق طرق سريعة على جانبيها مباني مضاءة بكثرة تضفي شعوراً بالثراء والرخاء. فيما تبقى من الليل، لم نستطع النوم، كنت انتظر غزة هناك، على بعد بضع ساعات فقط بالسيارة غداً.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

نعم، كنا سعداء جداً ذلك الصباح، متعبين لكن سعداء. سلك التاكسي طريق ترامواي قيد الإنشاء, ترامواي فرنسي يقال انه يعبر المدينة دون أن يتوقف في الحي العربي. أمام كل هؤلاء الناس الذين يعتمرون قبعات ويرتدون ألبسة غريبة، اعتقدت أني في فيلم الحاخام يعقوب. رأيت أسماء لطالما سمعتها في طفولتي: جتسيماني، جبل الزيتون، البحر الميت... وبعد أكثر من ساعة بقليل وصلنا إلى نقطة إيرز الحدودية الشهيرة. مبان تبدو وكأنها مخازن شاسعة، جدران مبنية من صفائح شاهقة من الباطون... شباك صغير وشابة تتفحص جوازات سفرنا بعناية. بعض الشبان يرتدون الكابوي والقمصان وقبعات مقلوبة إضافة إلى بندقية رشاشة ملقاة على الكتف. يتحدثون ويقهقهون. سؤال وحيد: هل معكم أسلحة؟

نقطة الحدود هذه تشبه المطار وتودي إلى قطاع غزة أو إلى اللامكان. حقائبنا في أيدينا، عبرنا عبر ممرات تبدو لا نهائية، مررنا ببوابات معدنية تشبه مفرمة اللحم... إنها مثل متاهة وجدران من الباطون العاري تماماً، كتلك التي كان يمكن أن يصفها جورج أورويل في أفضل الحالات. الجو حار. كاميرات تراقبنا. نمشي وكأننا في قصة مصورة رمادية ومميتة. ثم توقف كل شيء خلف هذه البوابة الأخيرة: شريط مهجور هو طريق شبه مكسرة، سماء زرقاء، عالم آخر... مشينا لمسافة كيلو متر تقريباً، وعلى الجانبين مبان مهدمة وكأن مطرقة عملاقة سحقتها. وفي البعيد بوابة صغيرة، طاولة وشمسية وسيارات تنتظر: غزة، نحن في غزة.

ساعدنا جمال، صديق ريجيس في استقلال تاكسي عمومي. يذكرني جمال بتوسكان دو بلانتييه. أما عوني، سائق التاكسي، فقد يكون مناسباً لدور ثاني في فيلم لـ لوتنير. دخلنا إلى مدينة غزة. لم أر الشئَ الكثير في البداية: ملصقات تحمل صور الشهداء، لوحات جدارية ضخمة لشباب يقفون إلى جانب بندقية كلاشنكوف ضخمة. ثم اكتشفت أن السيارات هنا قديمة، وكثير من عربات الحمير، وجماعات من الأطفال في كل مكان. ثم رأيت منزلاً مهدماً لم يتبق منه شيء، وهو مبنى يبدو أن جزء منه قد تبخر. رأيت عالماً لا يشبه البتة ما رأيته في الجهة الأخرى من الحدود. أرى فقراً وحركةً وكأنها مبتهجة، وبيوتا أخرى كثيرة محطمة لا يُرى منها إلا أسقف الباطون ممدة على الأرض، وكأنه جسد ممزق تظهر أحشاؤه: أسلاك وقطع بلاستيكية وحديد. وصلنا إلى فندقنا الصغير، المارنا هاوس، تفوح منه روائح معسل الشيشة ، برائحة التفاح أو الورد. هذه المرة، أنتمي لغزة لستة أيام.

مترجمتي أسيا امرأة قصيرة باسمة، عاشت في الجزائر وتتكلم فرنسية أنيقة. كونت مع أسيا وعوني السائق وأحياناً الدكتور ماري فريقا جيداً.

قدمت لنا جمعية فلسطينية لحقوق الإنسان "الميزان"- قامت بتوثيق مجريات الحرب بالشهادات و الأدلة والصور- أسماء وعناوين وأرقام تلفونات، كما عرضوا علينا مجموعة من القنابل والرصاص وصواريخ جمعت هنا وهناك، ومئات الملفات جمعت فيها شهادات الضحايا. ثم كانت البداية... كأنك تسحب خيطاً من كرة صوف وتتبعه. لقد بدأ متحف الرعب الصغير.

" أطباء للمساعدة " - منظمة انسانية غير حكومية - فرنسا
info@helpdoctors.org : بريد الكتروني   www.helpdoctors.org : صفحة الكترونية
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

زهدي والقنبلة النائمة

بدأت رحلتنا في بلد الظلام ببيت لاهيا شمال قطاع غزة. أخبرتني آسيا أن بيت لاهيا هي عاصمة الحمير. مررنا بشوارع على جانبيها بيوت مهدمة جزئياً. البيوت الأخرى التي ما زالت قائمة، تحتوي عالماً صغيراً بدأ بالتحرك، ربما مازال الوقت مبكراً بعض الشيء. حانت ساعة تناول القهوة وذهبنا إلى بيت والد أسيا. زهدي الكيلاني، 70 سنة، رجل مبجل حكيم وهب كل حياته لفلسطين. كانت أسيا تقدمني كل مرة موضحة طبيعة عملي وأنني أريد أن أدون قصصهم وأجمعها في كتاب لهذا معي دفاتر وأقلام.

يقع بيت زهدي على مفترق طرق نرى منه آثار حريق، وثقباً ضخماً في السقف. نادت أسيا فظهرت سيدة، أمها، وأدخلتنا في باحة داخلية: أرضية من الباطون وبعض الكراسي البلاستيكية.بنت صغيرة مجعدة الشعر تلعب بدمية قديمة، "إنها ابنة أختي المطلقة وأمي تعتني بها" وصل الأب وهو رجل عزيز النفس ببطء. كان برتبة عميد، رفيق أبي عمار وقال لي: "أجداد والدي كانوا يسكنون هنا، هذه أرضي لا أريد الخروج من بلدي".

تصحب كلماته دموع، يتكلم ببطء، أفكاره تتأرجح. نعم، لقد رأوا أوراقا تسقط من السماء تطلب منهم الرحيل، تقول لهم إن كان هناك مقاومون بجوار البيت فسيقصفون أن عليهم أن يحتموا... نعم حتى إنهم تلقوا رسائل على الجوال لتنذرهم! يا لها من تكنولوجيا! نعم، لقد نجح في إقناع أفراد عائلته بالهرب إلى مدرسة الأنروا، أما هو فبقي جالساً على عتبة بيته ورأى قنابل الفسفور تسقط من حوله.

كان تحرق كل ما تلامسه لكنه لم يتحرك. كان يصرخ بمن يهربون في الشوارع: ابقوا، لا تهربوا، هذا بلدكم. لكن أحداً لم يصغ له. كان الدخان يعمي الجميع أما هو فبقي على كرسيه. عاد بعض الناس من أجل حيواناتهم، كنت أسمعهم يقولون : ماتت بقرتي وخرافي أيضاً وآخرون يدفعون بعض المال لأولاد صغار للذهاب لإطعام الحيوانات لشدة خوفهم من العودة لبيوتهم.

يقول زهدي الكيلاني: كان كل شيء محترقاً في الشارع. لفترة من الزمن، لم نكن نرى سوى الكلاب فبدأت أطفئ النيران بالقرب من البيت. أمسكت بعنزة تائهة وربطتها في الباحة ثم عدت وجلست على الكرسي. كنت أسمع سيارات الإسعاف وصراخ النساء. بعد أن قصفتنا طائرات الإف 16 ، رأيت طائرات مروحية تلقي قنابلها أيضاً. هذه ليست حرباً حقيقية ترى فيها أعداء يتواجهون، هذه حرب يعتدي فيها جنود على مدنيين، شيوخ ونساء وأطفال. لم يعد هناك متسع لفلسطين، ومن لا يمت يرهبونه. أما أنا فلا أخفاف لا أريد أن أخاف.

لم يتحرك زهدي أثناء القصف. أمّن الحماية لمن يحبهم، أما هو فقد عبر عن ارتباطه بالأرض بهدوء. دخلت قنبلة البيت، تساءلت عما حدث وصعدت الدرج. فتحت القنبلة ثقباً هائلاً في سقف الحمام وفي الجدار المقابل، تبعت مسار القنبلة حتى الغرفة وضحكت عندما رأيتها توقفت على السرير بجانب الحائط فقلت لنفسي... إنها تنام الآن. أشعل سيجارة ثم رأى من فتحة الباب شيخاً عجوزاً يمر ويعرج متكئاً على عكاز بيده اليسرى. نادي زهدي على

" أطبـاء لـلـمـسا عد ة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

الرجل، عطية محمد غبن، وأدخله الباحة. رفع زهدي أمامنا كُمَّ الرجل العجوز فظهر جرح وغُرز حديثة في معصمه. يكاد العجوز أن يبتسم: "قال زهدي أين يده؟ أين هي؟ أين ابنه المهندس الذي مات بجانبه عندما انفجرت القنبلة؟" لم يقل الرجل شيئاً، يهز رأسه فقط. فصوت القنابل أفقده السمع، وكأنه ليس معنا، بل في مكان آخر. أما نحن فهنا فعلاً نشرب الشاي في الشمس، نطرد الذباب الذي يحط على الكعك، أرتنا الأم كيف أن أربع عائلات عاشت مكدسة دون ماء ولا كهرباء في غرفة واحدة. فاستعملوا موقداً للطهي يعمل بالبترول وتقول : إننا نستعمل التكنولوجيا الحديثة أما الآخرون فيحرقون الحطب. ثم صعدنا جميعاً لنرى القنبلة التي سقطت على السرير. بقيت القنبلة، لم يرفعها أحد، لم يعد أحد يسكن في هذا الطابق المثقوب، المغطى بالحجارة المكسرة، بلا نوافذ، تماماً ككل البيوت المجاورة – لا يوجد زجاج في غزة لإصلاح النوافذ–.

وهنا نرى مشهد فوق واقعي، لكنه حقيقي جداً... سرير مكسر، ثقوب في الجدران، شظايا حادة، والقنبلة النائمة على السرير غبية وكأنها طفل. "لحسن الحظ أن أحد لم يكن نائما هنا".

تقول آسيا إن أباها منهك، تعتقد أنه سيجهش بالبكاء وعندما طرحت هذا السؤال، الذي سأسأله لكل من سأراهم: "ماذا تريد أن تقول لمن سيقرأ هذه القصة؟". رد زهدي الكيلاني بكل فخر: "قل لهم إنني لن أرحل من هنا أبداً ".

في السيارة مع فايز

شاهِدنا التالي يسكن في جباليا ، قبل غزة بقليل. توجب علينا الاتصال بالتلفون عدة مرات قبل أن نحدد موعداً. فايز نور أحمد صالحة، 45 سنة. كان هذا الرجل رب أسرة سعيد، أنجبت له زوجته سبعة أطفال، ثلاثة أولاد وأربع بنات. لم يعد له اليوم سوى ابن واحد وبنتان. ماتت زوجته وأربعة من أطفاله، دفنوا تحت أنقاض بيتهم. التقينا به قرب منزله المهدم ودارَ اللقاء في السيارة لأن شاهدنا لا يرغب في رؤية هذا المكان المشئوم. يجب أن نقول إنه لم يبق شيء يشبه اليست. وكأن مطرقة ضخمة انهالت لتسحق كل شيء، كومة من الجدران، من الباطون، من الحديد، قطعة من كرسي، وإناء من البلاستيك وملابس ممزقة.

حدث القصف يوم 1/9 الساعة 3:30 صباحاً . في هذا اليوم كنت في العمل فأنا حارس في مدرسة الأنروا . كنت أعتني بمن لجئوا لتلك المدرسة. كان علينا إطعامهم وتهدئة روعهم وفجأة اتصل بي أحد الجيران ليخبرني بأن منزلي تعرض للقصف.

فايز رجل ممتلئ بعض الشيء، بنظارات صغيرة ولحية قصيرة، ينظر باهتمام ويحتاج لبعض الصمت بين جملتين: ثم قال لي جاري أن أذهب مباشرة للمستشفى، فعائلتي هناك. ذهبت على وجه السرعة إلى المستشفى وتعرفت على بقايا زوجتي وأربعة من أطفالي. كانت جثة زوجتي مقطوعة الرأس، فتعرفت عليها من ملابسها. ابني نور، ذو الأربعة عشر عاماً، هو من أخرج أمه وعمته من تحت الأنقاض كما ساعد في البحث عن أشلاء إخوته وأخواته. كان يعيش في هذا البيت 12 شخصاً قتل منهم ستة. ثم أتى خبراء متفجرات لدراسة بقايا الصاروخ. ما زلت لا أفهم لماذا قتلوا هؤلاء الأبرياء. بكل التكنولوجيا التي يمتلكها الجنود الإسرائيليون لماذا استهدفوني أنا؟ يقولون إن إشارة

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا

صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

الجوال تكفي ليستهدفوني. لم نحمل سلاحاً أبداً، أما عن مهنتي، مساعدة الآخرين الخائفين المعانين أنا لست مقاوماً...

لماذا قتلوا زوجتي وأطفالي؟ تقدمت بشكوى لدى مؤسسة إنسانية، أريد أن تتحقق العدالة. لم أستطع الذهاب إلى ذلك البيت المهدم لمدة ليومين. قضيت وقتي كله في المقبرة، حتى أنني فقدت الذاكرة. لم أستطع أن أرى صورة وجه أطفالي. كان علي أن أنظر إلى الصور حتى أتذكرهم من جديد. أسكن الآن في بيت حماتي وهو بيت مدمر أيضاً، نعيش تحت سقف من الصفيح والنايلون. للأسف يمر أطفالي أمام أنقاض البيت في طريقهم إلى المدرسة ويتوقفون أمام كومة الحجارة لساعات طوال إلى أن أتي لآخذهم. رشا، ذات الثمانية أعوام، ترى أمها كل ليلة وتستيقظ باكية. رؤى، 10 أعوام ، لا تكاد تتكلم ولا تريد أن ترى أحداً وفقدت كثيراً من وزنها لأنها لا تريد أن تأكل... ونور، 14 سنة ، يقول إنه لا يسمع جيداً، أعتقد أنه لا يستمع أنه دائماً في عالم آخر أما أنا فغالباً ما أحتاج لأن أبقى وحيداً وأني أشعر بعدوانية فيّ.

الحياة أو الموت... لم أعد أهتم ، لقد فقدت كل شيء، لم أعد أري لي مستقبلاً. كل ما أعرفه هو أنني أريد أن أعيد بناء البيت بمساعدة أو بدون مساعدة. وأخيراً قرر فايز أن يصطحبنا قرب أنقاض بيته ليصف لنا المكان. لكنه صامت رأيته يلتقط قطعة قماش بدون تفكير ويلقيها بعيداً.

ماذا نتوقع؟ يبكي.

بالقرب من الياسمين

بالقرب من الحدود

تركنا فايز وتوجهنا نحو أقصى شمال قطاع غزة، بالقرب من الحدود، بالقرب من إسرائيل. الطريق مليئة بالمباني المدمرة ومن ضمنها المدرسة الأمريكية الشهيرة مدمرة تماماً. نسلك الآن طريق البحر. ما أجمل البحر المتوسط! يتنفس بين موجة وأخرى، تفوح منه رائحة اليود فتطغى على رائحة الياسمين. الطريق مكسرة أحياناً وعلينا أن نلتف حول حفر كبيرة خلفتها الدبابات. وعلى مقربة بإمكاننا رؤية أسقف المصانع والبيوت الإسرائيلية. أسيا قلقة بعض الشيء، تريد أن نضع علما أبيض على السيارة، فبالأمس فقط تعرضت سيارة للقصف. وقد بلغ منا الخوف مبلغاً حتى ان السائق خلط بين صوت مضخة ماء وبين صوت طائرة مروحية. ليس من السهل أن نجد المكان المنشود، ولكننا وصلنا إلى مكان هادئ جداً ملئ بأشجار الليمون والياسمين، وبيت جميل جداً، كما لو كنا أسبانيا. استقبلنا رجل أنيق: معطف جلدي أسود، شعر ابيض، شاربين صغيرين وعكاز في اليد. أبو زياد الغول ، 73 سنة. جامعي متقاعد عمل في قطاع المال، يزرع اليوم أرضه وبعد الحرب الاخيرة كرس وقته للتنسيق مع المنظمات الدولية. ما يريده هو الحصول على تصاريح من الإسرائيليين لكي تستطيع المنظمات الدولية الدخول إلى غزة والخروج منها. واضح أن أبو زياد دبلوماسي فهو يعيش بالقرب من الحدود في أراض يسكنها فلاحون يتاجرون بالزيتون والليمون. أثناء القصف، وككثير من الفلسطينيين، تلقى رسائل تحذير على الجوال، كما تلقى اتصالات هاتفية لمعرفة إن كان هناك مقاومين بالقرب من بيته. وقد أكد أبو زياد عدم وجود أي مقاوم في المنطقة: "كنت هادئاً، كنت أتوقع هجوماً

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
info@helpdoctors.org : بريد الكتروني   www.helpdoctors.org : صفحة الكترونية
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

برياً، وفجأة حدث القصف وتعرض بيت قريب لي للقصف مات في ذلك البيت شخصان، ابن عمي وابنه البالغ من العمر 16 سنة. لم يتلقوا أي تحذير بأن بيتهم سوف يقصف. أرسلت ابني ليرى ما حدث، ذهب بسيارة الجيب وعندما عاد قصف الجيب أيضاً وأصيب ابني في ساقه. كلمني بالجوال، كان خائفاً جداً أن يجهز الإسرائيليون عليه. بما أنني أتكلم العبرية اتصلت بمسئول إسرائيلي أعرفه قائلاً: " يجب أن أسعف ابني فرد علي بعدوانية شديدة : معك خمس دقائق ...

لكنني احتاج إلى نصف ساعة لأعيد ابني وأخرج الموتى، فما كان منه إلا أن نصحني أن أبقى في البيت وأن أغلق عليّ الباب. لكنني استطعت إخراج ابني، كانت ساقه متأذية جداً وتيقنت أن كثيراً من الناس حول هذا البيت كانوا في حالة توتر شديد.

كان هناك أطفال ونساء وكثير من المصابين. لم يجرؤ أحد على التحرك، فقد كانوا بلا ماء ولا كهرباء ولا طعام لعدة أيام. اتصلت بإسعاف الهلال الأحمر ليأتوا لإسعافهم لكن لم يكن يسمح للإسعافات باختراق خطوط العدو، كانت الدبابات تقطع طريقها. اتصلت بالإسرائيليين لأطلب حافلة لإجلاء كل هؤلاء المواطنين البسطاء، بلا فائدة. وفي النهاية اتصلت بصحفية في هآرتس أعرفها جيداً قامت هذه الصحفية بإعلام مركز إنساني فاتصل بي الإسرائيليون ليعرفوا احتياجاتنا وبعد يومين وصلت حافلة إلى الحدود محملة بالأدوية والطعام فذهبت لأتي بالحافلة أمام الجنود.

لا زلت لا أفهم لماذا استهدفنا القصف فنحن نعيش أمام أعينهم على بعد أمتار منهم فهم يعرفون من هنا وماذا نعمل فنحن مجتمع صغير مكون من مائة وثمانين شخصاً مسالمين تماماً. بل إنهم قتلوا الكلاب والحمير وجمل.

ليست لدي مشكلة مع اليهود كيهود، كمواطنين عاديين، لكن عندما يكونوا مستوطنين، من غير الممكن أن لا يتساءلوا عن مصير من يستوطنوا أرضه. لقد تجاوز اليهود حدود حقوقهم وأخذوا كل ما أرادوا يجب عليهم الآن أن يتساءلوا عما يريدونه منا. كانت اتفاقيات أوسلو فرصة طيبة لتحقيق السلام. ما العمل؟ هكذا قال لينين. أنا أحلم باتحاد فدرالي مكون من وحدتين تعتمد كل واحدة منهما على الأخرى. إذا استمر الإسرائيليون بالتصرف هكذا، فسوف يصطدمون بجدار وكلي أمل أنهم سيستيقظون. من ناحية أخرى، نحن الفلسطينيون ناس بسطاء وقد أصبح لدينا مدخل إلى المعلومات وعلينا أن نتعلم أن نتحدث بحرية وأن نصنع ما صنعه إميل زولا: أنا أتهم!

قبل أن نترك أبو زياد، ذهبنا لزيارة ابنه الذي يعيش في بيت على بعد مسافة قصيرة. كتابات تغطي كل الجدران، كما يفعل من يعودوا من رحلة الحج إلى مكة ولا يترددون في طلاء بيوتهم بعبارات الترحيب. ابنه ممد على السرير، النوافذ مغلقة وقد فقد بصره جزئياً بسبب انفجار. تبرز قضبان حديدية من الجبس الذي يغلف ساقه إنه لا يستطيع أن يحدثنا.

البدوي الصامت

تركنا شاطئ البحر وعدنا إلى المدينة، إلى بيت لاهيا لنقابل بدوياً تحول بيته إلى ركام. أوقفنا السيارة على طريق ترابي وسط حقل من الأنقاض، تحيط به مبان صغيرة عليها علامات غريبة. حرارة الشمس شديدة ولا ظلال، خيام

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
بريد الكتروني : info@helpdoctors.org صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

قليلة وبيوت من الصفيح والخشب وامرأة تخفي وجهها. أتت تستعيد ابنا لها يلعب في أنقاض الحرب. إنها قريبة الرجل الذي تلقينا شهادته للتو، قالت إنه فقد أمه وزوجته وأطفاله الثلاثة، قالت إنهم لم يخرجوا من البيت عندما أتت الدبابات لأن من طبع البدو ألا تظهر النساء. كانت تتحدث بسرعة وبحياء فقد فاجأنها. كانت تريد أن تجمع بعض البلاستيك لكي تخفي حديقة بيتها المعد على عجل. وصل عطا إرميلات. تردد كثيراً قبل القدوم إلى هذا المكان منذ الكارثة. يعيش الآن في بيت مستأجر بعيداً عن هذا المكان، وكالكثير من ضحايا الحرب، ما زال ينتظر تعويضاً "حوالي 5000 يورو" سيمكنه من أن يعيش حياة طبيعية. يبلغ عطا 31 سنة من العمر نظراته متعبة وعندما سألته عن عمله قال إنه لا يعمل ثم سكوت طويل. نحن الآن في قلب الأنقاض. تناول عطا بعض الحجارة واستعملها ليعد لنا مكانا للجلوس. ينظر عطا يمنة ويسرة وكأنه يبحث عن شيء. قال إنه تردد كثيراً قبل أن يأتي وأن ما حصل له مؤخراً حصل لأنه لم يستطع الانتظار في هذا المكان. يصعب أن نفهم بدقة ما حدث هنا فقد بقي عطا ارميلات ثمان أيام في غيبوبة بعد القصف.

في الأسبوع الأول من الحرب ذهبنا لنسكن في مكان آخر ثم عدت إلى هذا البيت لأنه بيتي. زوجتي وأطفالي وأمي لحقوا بي ولم أكن أريد ذلك. بقيت جالساً على كرسي في الحديقة وكان الجميع في البيت عندما أطلقت الدبابات النار. لم يتبق شيء. بقيت ممداً على الأرض بعد القصف، لم أكن أرى شيئاً لكثرة الغبار والدخان والرمل ثم اكتشفت أن البيت لم يعد موجوداً، ذهبت أبحث عن عائلتي وأخرجتهم من تحت الأنقاض ممزقين، ابني وبناتي الاثنتين وزوجتي وأمي وبعد ذلك أغشي عليّ، عندما استيقظت من الغيبوبة بعد ثمانية أيام، لم أكن أريد هذه الذكريات أصبحت في رأسي وفي قلبي. لماذا أطفالي؟ يمد عطا ذراعه ويرينا الفوضى، تظهر بعض أشجار التين، الذباب يحيط بنا ورائحة كريهة تملأ المكان. ينهض عطا، يمشي بصمت منحني الظهر، لكننا لن نعرف المزيد.

الشهيدات الخمس

ذهبنا هذه المرة الى مدينة غزة بحثاً عن أنور خليل بعلوشة. يسكن هذا الرجل مع من تبقى من أسرته في شقة مستأجرة منذ أن اختفى بيته. موعدنا في شارع حيوي باعة البوظة والحلويات يحركون الجمع وينادون بصوت عال: حلويات، حلويات... يبلغ أنور من العمر نحو 40 عاماً، يتكلم بسرعة وبصوت عال ، حسن المظهر، رياضي الجسم. أدخلنا بيته وأجلسنا على حصير في غرفة فارغة. التصق به وبزوجته طفلان، زوجته تلبس السواد لكنها تظهر وجهها. كان أمامها مهد معدني صغير تهزه بقدمها الحافية، رضيع ملفع نائم. على الجدار صورة، مثبته خمسة أوجه باسمة. أربعة أوجه وفي الوسط وجه صبية بحجاب أبيض، إنهن الشهيدات الخمس، بنات أنور وسميرة. كان لنا بيت متواضع بالقرب من مسجد. لم يكن البيت كبيراً ولا متين البناء، كان سقفه من الصفيح. تركنا بيتنا في بداية الحرب وذهبنا لنسكن في مكان آخر، لكن بسرعة أردت أنا وابنتي البكر أن نعود إلى البيت. وفي اليوم الثالث للحرب، عدنا جميعنا إلى البيت. وفي ظهيرة نفس اليوم اشترت إحدى بناتي تمراً ووزعت منه على الجيران قائلة: إذا

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
بريد الكتروني : info@helpdoctors.org صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

متنا، اقرؤوا علينا القرآن. هنا يوزع الناس التمر عندما تحدث وفاة في إحدى العائلات. شاهدت بنتي البكر الأخبار على التلفزيون وعندما علمت أن مركز الشرطة قد تعرض للقصف قالت: إنهم محظوظون فهم شهداء. جلسنا في بيتنا وعندما انقطع التيار الكهربائي قلنا لم يتبقى إلا شيء واحد أن نفعله... نذهب للنوم. كانت الساعة العاشرة مساءاً ونادراً ما ننام في مثل هذه الساعة المبكرة... كنا عشرة، أطفالي الثمانية وزوجتي وأنا. زوجته سميرة 35 عام تريني الطفلة الأخيرة في مهدها وتقول : كان عمرها 13 يوماً عندما بدأت الأحداث. ولدت براء بعملية قيصرية. خلدنا إلى النوم. أربعة في غرفة والبنات الست في الغرفة الأخرى ويستطرد أنور : البيت صغير جداً ، 45 متر مربع فقط . وفي منتصف الليل حدث القصف شعرت في هذه اللحظة ببرد ورطوبة في جسدي، أردت أن أسحب البطانية فشعرت أن ذراعي عالقة ولم أجد البطانية. وفوراً فهمت أن البيت قد انهار علينا فصرخت على سميرة : استيقظي لقد متنا. فيضحك وتضحك زوجته أيضاً لكن في ضحكاتهم تحد.

كنا ملتصقين أحدنا بالآخر كان ضغطاً هائلاً يدفعنا، لم نستطع الوصول إلى مهد الرضيع كل الجدران انهارت. علمت لاحقاً أن سقف المسجد المقصوف هو الذي انهار علينا، البرد الذي شعرت به كان بسبب الماء المنسكب من خزانات ماء المسجد، انفجرت وانساب ماؤها علينا. ولنصف ساعة، بيدي الحرة، أخرجت الحجارة والصفيح – ترينا زوجته صورة التقطتها بالجوال– . وبعد ساعة خرجنا مع ابننا محمد (سنة ونصف) فقط من تحت الأنقاض، كما استطعنا تخليص الرضيع كان المهد مقلوباً وبما أنه كان معدنياً لم تسحق الحجارة الطفل، هذه معجزة. كانت الفوضى تعم في الخارج ، سيارات محترقة وإسعافات تنتظر في الشوارع المحيطة صرخت طالباً المسعفين... يا إلهي تعالوا ساعدونا ما زال هناك أناس في الأسفل، ثم فقدت وعيي.

وهنا قدمت لنا سميرة عصير فراولة طازج، فكثيراً ما تمر في الشارع عربات تجرها الحمير تحمل الفراولة، بعض الناس لا يجرؤون أكلها خوفاً من أن تكون المواد التي خلفتها القنابل قد سممت المزارع. ثم يعود أنور إلى قصته في المستشفى: عندما استيقظت، اعتقدت أن بناتي الست قد متن. قال لي الأطباء أولاً أن واحدة فقط من بناتنا قد ماتت، ومع مرور الساعات أخبروني أن مجموع من توفين من البنات هو خمسة: تحرير 18 سنة، إكرام 15 سنة، سمر 13 سنة، دينا 8 سنوات، جواد 4 سنوات. الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة ، وهذه معجزة أيضاً، هي إيمان 17 سنة. استيقظت عندما انهار البيت. أرادت أن تنهض وتذهب إلى الحمام إلا أنها كانت عالقة فعادت إلى النوم إلى جانب أخواتها الميتات. أجد صعوبة في فهم كيف يمكنني أن أعيش مع كل هذا، فأنا لا أستطيع تحمل وخزة إبرة، إن الله هو من يقويني الآن وأنا أدعوه وحتى وأنا نائم.

أشاحت سميرة بيدها الكبيرة وكأنها تريد أن تطرح سؤالاً ، ثم أضافت أن بناتها كن موهوبات في المدرسة خصوصاً البنت البكر التي أرادت أن تكمل دراستها. ويختم الأب: ما هي عدالة الإسرائيليين، لماذا ماتت بناتي، إنهن بريئات. ولكي نختم قصة أنور، يمكننا أن نضيف هذه الطرفة الخفيفة: رأى أحد أمراء الإمارات على التلفزيون صور بيته المهدم كان فريق إسعاف قد التقط هذه الصور بعيد القصف فكنت ترى في هذه الصور ذراعاً ويداً تخرج من بين الأنقاض وتلوح محاولة الخروج. شعر الأمير بالأسى فأرسل 1000 دولار لأنور خليل. فهل للرعب ثمن؟

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

تركنا أنور وسميرة وأطفالهم الثلاثة يرافقنا شعور بالعجز. ما زلت أحتفظ ببطاقة المعايدة التي أعطتني إياها سميرة، نرى وجوه بناتها الخمس ، إنها كبطاقة عمل تقول إن السعادة ممكنة. ذهبنا لتناول الغداء عند طبيب صديق كان قد أعد لنا المقلوبة وهو طبق من الأرز ولحم العجل. وفي طريقنا إلى بيته في جنوب المدينة مررنا من أمام البحر. شاهدنا صيادين يلقون بشباكهم على الشاطئ. ترى آثار الدبابات في كل مكان وآثار الجرافات الضخمة التي يستعملها الجيش الإسرائيلي لإتمام عمل الدبابات، ثم ذهبنا لنقضي بقية اليوم عند طبيب آخر الدكتور وليد، أخصائي الأمراض النسائية فيقول: أنتم أطباء نفسيون؟ حسبنا نحن مليون ونصف مليون في غزة، هذا يعني أن لديكم مليون ونصف حالة، ثم يذكرنا د. وليد أن غزة لطالما كانت في الماضي مدينة يطيب العيش فيها. يقول هذا الرجل الطويل الأنيق مدخننا سيجارته ببطء إنه متشاءم جداً: لا نستطيع حتى أن نحلم، أن نحلم أن بإمكان أطفالنا أن يسافروا بحرية علينا أولاً أن نحقق السلام، أن نحقق السلام بيننا أيضاً . نحن نعيش في سجن، سجن لا يمكن الدخول أو الخروج منه، أتت الحرب لتحطم ما تبقى لنا من كرامة ولكي تغرس الخوف في أعماقنا. الوقت متأخر، المدينة تفرغ والإنارة في الشوارع على أقل ما تكون. يملك هنا كل من يستطيع مولداً كهربائياً فهذا أضمن بشرط أن تجد الوقود. يباع الوقود في محطات وقود عادية لكن أيضاً على قارعة الطريق في حاويات صغيرة ، في زجاجات بلاستيكية. خلدت إلى النوم منهكاً مصعوقاً حتى الساعة 5:18 دقيقة، عندما نادي المؤذن للصلاة فانطلقت أصوات الديكة من المنازل المجاورة لنافذتي. ضباب بحري خفيف، الجو بارد بعض الشيء، أسيا وعوني السائق ينتظراني ، أما ماري لور وريجيس فما زالا يتعاركان مع مالك البيت المراد استئجاره لعيادة خان يونس. تعلمت كلمتين باللغة العربية: مبسوط وبكرة. سألت أسيا عن مسبحة في يد عوني فقالت إن علينا أن نكرر 33 مرة هذا الدعاء (أستغفر الله)... وأعطتني مثالا: إذا شعرنا بالكراهية يوم الجمعة فهذه سيئة ويجب أن نطلب الغفران من الله فقلت لها بمكر خفيف فيكف تفعلون إذاً مع الإسرائيليين هل كراهيتكم لهم سيئة؟

الإسرائيليون كلا، ليس الأمر سيان... لأنهم أعداء

لا مفرّ من الموت

انتقلنا اليوم من جباليا إلى غزة وكان لقاؤنا الأول مع سيد محترم جداً مسئول عن الأمن في حي كامل. يستمع عوني في التاكسي لفيروز. الحي الذي نتوجه نحوه تعرض لدمار شديد، بيوت كثيرة سويت بالأرض، مبان ممزقة وواجهات تملأها الثقوب. يسكن رجلنا على تلة. لم يتضرر بيته كثيراً ، فقد استخدمه الجيش الإسرائيلي كثكنة عسكرية، يمكننا القول إنه كان محظوظاً... قنبلة أو قنبلتين فسفوريتين فقط، أحرقتنا جزءاً من الطابق العلوي. أبو تامر سعدي أحمد عبد ربه، 53 سنة، تاجر لكنه مسئول أيضاً عن الطوارئ في الأنروا. يدخن سعدي كثيراً، وطبعاً يشرب الشاي. استضافنا في خارج البيت على مصطبة مهدمة أمام خيام اليونيسيف، خيام رمادية أتت من فرنسا وتأوي من لم يعد لهم بيوت. لاحظت أحذيته البيضاء ونظاراته الصغيرة، يتكلم سعدي بحكمة.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

شعرنا أنها لم تكن حرباً عادية... كان القصف الجوي رهيباً (قذيفة كل 12 ثانية) أجبرونا على العيش في غرفة واحدة مع بعض الماء. لم يكن لدينا شيء آخر ما عدا الخوف. هنا كنا 27 شخصاً ، كان البعض يستعملون أغطية الزجاجات البلاستيكية لقياس حصص الماء. وكلما مر الوقت، كلما قال البعض إنهم يفضلون الموت هنا، فوراً بين جدران البيت. رأيت الكثيرين ممن أغمضوا أعينهم وانتظروا القنبلة التي ستقتلهم. لم يجرؤ أحد على الحركة ، كان علينا أن نزحف لنصل إلى الحمامات. في الليل كانت القنابل تنير المشهد في منطقة قطرها كيلو مترا، وكأننا في وضح النهار. كلما انفجرت قنبلة اعتقدنا أنها قنبلتنا. لم نعد نصرخ، بل نحن مذهولون، مصدومون. كرب العائلة كنت أرى الأطفال يموتون وكنت أتساءل ما سيكون ردي فعلي إن دخلت القنبلة هنا. أردت أن يحدث ذلك سنموت جميعاً فوراً. لم أرد أن أرى أطفالاً ينزفون.

عندما نفد الطعام، قلت لابني علينا أن نغادر هذا المكان... فأجابني ابني : "لا أحد يفر من الموت". كان الأطفال يختبئون في كل مكان ممكن، تحت الطاولة وفي الخزانات. عندما اعتقدنا أن العملية البرية على وشك أن تبدأ، أدركنا أن علينا إشعال شموع ليعرف الإسرائيليون أننا هنا، وأن أحياء مازالوا هنا، فلا يطلقوا النار. وبعد ليلة من الانتظار، لم نعد ندري ماذا نفعل. انقضت ساعتان بهدوء ثم وصل الإسرائيليون. أمرونا بالخروج بمكبرات الصوت. لاحظنا في الخارج أن كل شيء حولنا مدمر، أن بيوتاً قد اختفت، رأينا دبابات تدير مدافعها بسرعة كبيرة وتصوبها نحونا.

قالوا لنا امشوا بخط مستقيم، أخفضوا أعينكم وكل من يرفع رأسه سيموت. كان علينا أن ننزل في الحفر التي خلفتها القنابل وكانت عميقة أحياناً وأن نصعد من الجهة الأخرى، مصطحبين معنا الجرحى كان صعباً للغاية. وبعد مائة متر، شاهدنا جنوداً كثيرين، كنا نمشي بمحاذاة البيوت ورأينا جثثنا. تعرفت على ابن عم لي، رأينا أيدي تخرج من بين الأنقاض، كان على الرجال والنساء أن يمشوا في صفين منفصلين وعلى الشباب أن ينزلوا البنطلون إلى الكاحلين لكي يرى الجنود أنهم لا يحملون أحزمة ناسفة حول بطونهم. كان ابني محقاً يصعب جدا الفرار من الموت. اقتاد الجنود بعضاً منا سجناء وتركوا الآخرين يذهبون نحو المدينة.

كان بيتي جنة في الماضي.بحديقة جميلة خضراء. أما الآن فأراه كالمقبرة، لا أشعر بالارتياح إلا عندما أخرج من بين الجدران، لم أعد أنام وبمجرد أن يسقط شيء أسمع قنبلة، لم نعد نجرؤ على إطفاء الأنوار لشدة خوفنا من الظلام، لا أريد أن يحل الليل.

كانت هنا مزرعة

لم نستغرق طويلاً لنصل إلى مزرعة أحمد فتحي. بعد بضع مئات من الأمتار، كان علينا أن نتجاوز مصنعً فخار صغيراً مدمراً، وها قد عدنا من جديد. لا نستطيع أن نقول إنها مزرعة، لأن البيت الذي ندخله ليس إلا كوخاً من الخشب والحديد معلقة فيه بعض الأدوات الزراعية. نار موقدة في كانون من الصفيح، الأرضية من الطين ويستخدمون بقايا سرير كمقعد.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

أحمد، 40 سنة، أخضر العينين، أسمر البشرة وكأنه من سكان الجبال. كان عنده قبل الحرب أبقارا وكان يبيع الحليب واللحم. قبل الحرب... جلسنا على كراسي خشبية فجاء أصدقاء وفضوليون آخرون لسماع قصة أحمد وقصة أخيه محمود. يتذكر أحمد: "عندما وصلت الدبابات كنا محتجزين في البيت منذ سبعة أيام دون نوم والأطفال يبكون. خرجنا جميعاً حاملين أعلاماً بيضاء وكان الأطفال والنساء في المقدمة ورأيت بأم عيني الدبابات وهي تقصف المزرعة. كان ذلك يوم 1/4 . قتلوا جميع الأبقار والجمال ثم صوبوا مدافعهم نحونا، ارتمينا أرضاً وصرخنا. فقط أبي وأمي وزوجة أبي وأخي لم يخرجوا من البيت، لم يريدوا ترك المزرعة. مشينا لساعات يحمل بعضنا الجرحى على ظهره . كنا نتصل بأبي بالتلفون فيخبرنا أن الجنود يدمرون البيوت. في يوم 1/11 ، الساعة التاسعة صباحاً أخرجهم الجنود من البيت ووضعوهم على مرتفع فأطفأ والدي جواله، أما محمود فقد فر بينما كان الوالدان يتقدمان المسيرة بأعلامهم البيضاء. علمنا في اليوم التالي أنهم قتلوا في الطريق وحتى أن إسعاف الأنروا لم يستطع أخذ جثثهم، بقوا عدة أيام ملقون على الأرض. الآن لم يعد لي عائلة، لم يعد لي بيت، لم تعد لي ماشية، ليس لدي عمل، أنا ضائع. حتى المعلمين في المدرسة يقولون إن أطفالي بحاجة إلى طبيب نفسي، فقد فقدوا القدرة على التعلم، وأنا نفسي لم أعد أستطع النوم.

توقف أحمد فتحي وأخرج من جيب قميصه شرائط أدوية ثم استأنف: أنام هنا في هذا الكوخ وأريد أن يعرف العالم كله ما يحدث هنا، أريد أن أقول أن موشي ديان قد أخطأ عندما قال إن إيهود بارك جنرال عظيم. فالجنرال العظيم لا يأمر جنوده بقتل المدنيين. ازداد التوتر في الغرفة الصغيرة المملوءة بالدخان وقال أحد الرجل الحاضرين ممن حملوا جرحى على ظهره، قال إنه تكلم مع الجنود طالباً منهم أن يتركوه يمر لأنهم أعلنوا عن وقف إطلاق النار، فرد عليه أحد الجنود اخرس وأنزل بنطلونك...

ثم سألني الجندي لماذا الرجل الذي أحمله مصاب؟ أجبت إنه كان في المزرعة التي قصفت ولحسن حظه فقد احتمى خلف البقرات. بدت الدهشة على الجندي ثم تركنا لنموت. نحن محظوظون لأننا ما زلنا على قيد الحياة.

ثم تركنا هذه المزرعة، واصطحبنا أحمد فتحي على بعد عشرات الأمتار في المكان الذي بقيت فيه جثث أسرته لعدة أيام. كان هناك حصان ينتظر على جانب الطريق، حصان أعرج تلقى رصاصتين في ساقه.

دكان صغير في جباليا

محمود جواد فجاج عبد ربه، 45 عاماً، يعتمر طاقية صغيرة وأخوه عدنان جواد فجاج عبد ربه بجانبه. كان شرطياً في السلطة الفلسطينية. التقيناهم أولاً أمام متجر صغير حدثت فيه الفاجعة. جلسنا في غرفة بالطابق العلوي، ويجد هذين الرجلين صعوبة في التعبير.

يتذكران كيف إنه خلال القصف (بقنابل الفسفور) تجمعت كل العائلة، 15 شخصاً، في الطابق الأرضي. وبعد أن هدأت حدة القصف قرروا مغادرة البيت، خاصة وانه تم الإعلان عن وقف لإطلاق النار. وفي هذه اللحظة بالذات حدث ما حدث. يحدثنا عدنان بنفس متقطع: "رأيت طائرة استطلاع، نسميها هنا الزنانة، بسبب صوتها الذي يشبه

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

صوت البعوض، رأيت طائرة الاستطلاع تطلق صاروخاً أصابنا جميعاً، مات ثمانية من أل 15 شخص، رأيت أماً وابنها وقعا بين ذراعي أحدهما الآخر كان الدم في كل مكان وكذلك الدخان وصراخ الناس. حاولنا تنظيم الإسعافات، لكن لم يسمح لسيارات الإسعاف بالدخول لهذه المنطقة فاستعملنا عربات الحمير لنقل القتلى والجرحى.
ما زالت شظية قنبلة في ظهري إلى الآن وأعرف أن أحدا ما نقلني على ظهره لمسافة كيلو متر. أذكر أنني كنت أرى أجساداً في الشوارع، أخاف أن أتذكر هذه اللحظات. جرح الأخ الأخر في ظهره وكلتا يديه ووجهه. يروي لنا كيف نقله بعض الناس في بطانية مما زاد من جراحه ثم يضيف: "يجب أن تخبروا العالم أجمع بأننا كنا نعيش بسلام وأنه لا يجب أن يعود الجنود. لقد قتلوا أولادنا وقسماً كبيراً من عائلتنا ماذا أقول أيضاً؟ أردنا فقط أن نهرب، هذا كل ما في الأمر. كنت بالأمس عند الطبيب من أجل إصاباتي وبعد أن فحصني الطبيب قال لي أنت بحاجة إلى معالج نفسي... ففكرت: ماذا عساي أقول للمعالج النفسي؟ أنا خجول لكنني لست مجنوناً. ثم تناولنا الشاي المعطر بالمرمية وتحدثنا في موضوع آخر، موضوع يحب أهل غزة الحديث فيه مع الفرنسيين: جاك شيراك بطل الغزاويين قال محمود وهو يودعوني بسخرية: لماذا لا تأخذ كل الفلسطينيين معك إلى فرنسا... هل تخشى أن يقضى عليكم؟

دموع زينات

لقد أصبحت عائلة السموني من مشاهير متحف الرعب في غزة. قتل أكثر من 20 شخصاً على عتبة هذا البيت الكبير الذي يحمل آثار الحرب: حريق، شظايا، قنابل وبقايا كتابات جدارية كتبها الجنود الإسرائيليون ولسان حالهم يقول: يجب أن يموت كل العرب ورسم لقبر عليه تاريخين: العرب 2009/1949 ، وأيضا هنا مقبرتكم، سنقتلكم جميعاً. والعجيب أن البيت ما زال قائما في هذا الشارع الصغير بينما تحولت كل البيوت الأخرى إلى كومات من الباطون. دخلنا غرفة حزينة جداً، باطون رمادي متسخ لا يحمل إلا صورة كبيرة واحدة، صورة شهداء عائلة السموني الـ 21 ، صور النساء لا تظهر، بل وضع مكانها زهور بيضاء.
استقبلتنا زينات عبد الله السموني، تجلس على كرسي، تحمل رضيعها بين ذراعيها متوشحة السواد، يظهر على وجهها تعب شديد وآثار بكاء واضطرابات نفسية رهيبة. أصبحت زينات، 35 سنة، أرملة وتبقى لها سبعة من أطفالها الثمانية: "أثناء القصف تجمعنا في هذا البيت، كان مجموعنا 97 شخصاً" وصل الجنود بعد القصف، كان مظهرهم مخيفاً، كانوا شبان يضعون الطلاء على وجوههم، سألوا عن المسئول عن البيت فخرج زوجي فأطلقوا عليه النار ثم دخلوا إلى الغرفة وكسروا كل شيء وألقوا قنابل داخلها ثم أطلقوا علينا النار. أصيب الكثيرون ومن بينهم ابني ذو الأعوام الأربعة أصيب بطلقين وكنا نصرخ: أنجدونا، أنقذونا. نظرت لزوجي على عتبة البيت، لم يعد يتحرك وكان الدم يخرج من كل مكان. حاولت أن أتكلم بالعبرية وسألت هل مات زوجي؟ أردت الخروج لآتي به وكنت حافية القدمين فصرخ في وجهي جندي قائلاً: دعيه وإلا قتلك فقلت له وأنا أنظر في عينيه مباشرة: لماذا قتلت زوجي؟
صوب سلاحه نحوي، كان وجهه مرعباً واعتقدت أنه سيقتلني. جمعنا الجنود وطلبوا منا الذهاب باتجاه الجنوب. كنا نراهم على أسطح البيوت مصوبين أسلحتهم تجاهنا، طلبوا من الأولاد أن ينزعوا البنطلون ثم مشينا حتى وصلنا إلى

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

بيت قريب. لجأت إليه مع طفلي الذي يأن من شدة الألم وبالكاد يستطيع التنفس لم تكن الإسعافات تستطيع أن تصل إلينا لاحظت أن فمه كان جافاً لكن لم يكن قادراً على الشرب، فبللت أصبعي وحاولت أن أضع قطرة في فمه، كان ينزف كثيراً وفي لحظة من اللحظات عض يدي بقوة فقلت له افعل ما شئت بأمك.
يجب أن نقول إننا كنا أربعة أو خمسة في الغرفة، وصل مصور وبدأ يلتقط صور الكتابات على الجدران، وبدأت زينات تذرف الدموع وهي تحكي قصتها ، وكذلك أسيا المترجمة لم تستطع أن تسيطر على حزنها. تضم زينات طفلها وتمسح دموعها ثم تستأنف: عضني ابني بقوة شديدة حتى لم أعد أستطع تحمل الألم فقلت له: أصبعي يؤلمني جداً، فعض البطانية بشدة ثم قال لي: يا أمي أريد أن آخذك معي إلى الجنة، أراد أن يقرأ القرآن وأن يغني أغنية أطفال ثم سكت، ثم برد جسمه ومات. الآن أخاف على أولادي الآخرين، لا أعرف كيف سنعيش اليوم لأن زوجي كان بمثابة السقف الذي يحمينا. والآن؟ يخاف الأطفال بمجرد أن يسمعوا ضجة ، لا أدري ماذا سيحل بنا.

صاروخ من بعيد

لم نخرج سالمين من هذا اللقاء مع زينات. أحاول أن لا تؤثر في العواطف إلا أنني أهتز بشدة عندما أرى الشمس تضيء الأنقاض. مدت لي امرأة أخرى منديلاً ملطخا بدم جاف: هذا ما تبقى من الولد. قطعنا حقلاً مشياً على الأقدام، وصلنا إلى أنقاض أخرى تفوح منها رائحة غاز، وفي كل مكان نجد بقايا قنابل نحاول أن لا نلمسها. بعض الأجزاء تشتعل بمجرد أن يلمسها أحد، علينا أن نتوخى الحذر وأن ننظر جيداً أين نضع أقدامنا، لا نريد أن تبقى آثار البارود على ملابسنا أو أحذيتنا فهناك تفتيش دقيق في طريق عودتنا بالطائرة إلى فرنسا. ثم أخذتنا خطواتنا نحو مجموعة من النساء والأطفال جالسين على مصطبة صغيرة، تشعل إحداهن ناراً صغيرة وتعد الشاي بالنعناع. تقف أمامنا نصرة حجي ذات ال 70 خريفاً وعفاف فواز حجي، 39 سنة، وأم لستة أطفال جرح اثنان منهم أثناء الحرب أصيب الابن البكر في العمود الفقري ويعالج الآن في تركيا. لسوء الحظ فإن عفاف لا تستطيع أن تقرأ التقارير الطبية المرسلة لها من تركيا: "كنا ثلاثين شخصاً في البيت وبقينا أسبوعاً كاملاً دون حراك وعندما بدأ القصف الجوي، أعلمنا برسائل على الجوالات أننا سوف نقصف". ثم انضم إلينا عدد من الجيران قصفت بيوتهم بالقنابل وكان من بينهم الكثير من الجرحى والقتلى. وعندما حان موعد الهجوم البري، عندما وصل الجنود، دخلوا هنا فنزعوا ملابس الشبان وعصبوا أعينهم وقيدوا أيديهم. حبسونا جميعاً في غرفة واحد طوال الليل وحتى ظهر اليوم التالي. حولوا البيت إلى ثكنة عسكرية حتى إنهم فككوا البلاط ليستعملوا الرمل من تحته في ملأ أكياس الرمل لتحميهم.
وبينما تكمل لنا قصتها، سمعنا صوتاً حاداً يقطع حديثها، لا بد أنه صاروخ قسام أطلق على إسرائيل... "صاروخ عربي"، وشوشت عفاف في أذني دون أن تبدي أية مشاعر أمام الدخان المتبخر في السماء. لكنها تبدأ بالشعور بالقلق عندما تسمع صوت طائرات الاستطلاع بعيد ذلك بقليل، حتى وإن اصبح هذا الصوت الغريب جزءا من حياتها اليومية الآن.

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

بعد انقضاء تلك الليلة، أمرنا الجنود بالمشي باتجاه رفح جنوباً. كنا خائفين ولم نكن ندري إلى أين سنذهب، ثم قال لنا جنود آخرون أن نعود لبيتنا، ما العمل؟ لقد تفرقنا الآن، ذهب البعض باتجاه رفح وآخرون ذهبوا باتجاه بيوت قريبة. كان ابني مصاباً في ظهره ولم يكن قادرا على الحركة، كان في بيت قريب لنا يطلب النجدة، كان المصابون حوله يموتون بعد ساعات من النزف. بعد أن هدأ الوضع قليلاً وصلت سيارات الإسعاف لكنها لم تستطع الاقتراب من البيوت، توجب حمل الجرحى والقتلى على عربات وجرها بالأيدي– لم يعد لدينا حمير– لمسافة كيلو مترين، كان علينا أن نترك القتلى على جانب الطريق، لم يتبق لدينا ما يكفي من القوة لحملنهم ثم عدنا لهم بعد أسبوعين لكن لم نكن قادرين على التعرف عليهم.

عدلت عفاف غطاء رأسها. تريد الأمل، تريد ببساطة الأمل في حياة في بلد آمن. منذ تلك الحرب تسمع الراديو بلا انقطاع متنبهة لجميع الأخبار، خوفاً من أن تعود الحرب، حلم بسيط. وقبل أن نغادر زرنا بيتها، كل شيء محطم، الأثاث أو ما تبقى منه كان هدفاً للجنود. وهنا أيضاً ترك الجنود كتاباتهم في كل مكان على الجدران لكن عفاف لا تفهم ما كتبوا. عفاف لا تملك حالينا الإمكانيات ولا حتى القوة لترميم البيت، تريد فقط أن تعيش يومها في هذا القبر. وعندما خيم الليل أخيراً، سعدت بلقاء أصدقائي، بالأكل والضحك معاً، حاولنا أن نتحدث عن أشياء أخرى... لكن كيف ذلك؟ تذوقنا الكنافة، لكن مذاقاً غريباً كان في حلقي. ثم وجوه تمتزج نظراتها، كل هؤلاء الناس ممن حكوا لي قصصهم، ما القاسم المشترك بينهم فيما عدا المعاناة؟ نعم في هذا اليوم الأخير من شهر مارس في غزة رأيت كيف يمكن أن ندعي أننا نصدق أن الحياة قد تكون جميلة.

1 أبريل

الأربعاء 1 أبريل، واضح أن جمال شخصية غير عادية، فقد أخبرنا مع طعام الإفطار أن ضفادع بشرية إسرائيلية نزلت على شاطئ غزة، كنا قد نسينا أننا في الأول من أبريل لكن جمال لم ينس.

انضمت إلينا اليوم الدكتورة ماري فشعرت بالاطمئنان. أشعر أنني لم أعد أحتمل كثيرا من الجثث ومن الحزن، لو كنا أكثر عدداً فربما أمكن تخفيف الرعب. بدأنا زياراتنا في مدينة غزة بشقة صغيرة تسكنها صباح رشاد أبو عيشة، امرأة في الخامسة والأربعين. دلنا طفل في الشارع على بيتها وعندما طرقت أسيا الباب سمعت امرأة تهمس: إذا كان هناك رجال فلن ندعهم يدخلون. في النهاية دخلنا. تغطي صباح نفسها برداء أسود. ما زال الوقت مبكراً ويبدوا أنها محرجة بعض الشيء لأنها خرجت من الحمام لتوها ، لحسن الحظ أن معنا أسيا وماري. بدأت صباح تروي قصتها: بعد عشرة أيام من القصف ولشدة خوفنا قررنا أن نسكن لدى عمة لي في بيت اعتقدنا أنه آمن. زوجي عمار رزق أبو عيشة يعمل بناءً ومتزوج من زوجة أخرى ، نهال خالد أبو عيشة، أنجبت له ثلاثة أطفال أما أنا فأنجبت ولداً واحداً بعد سبعة عشر عاماً من الزواج. في تلك الليلة ذهبت مع ابني لننام عند صديقة ولسوء حظنا سقطت عدة قنابل على بيت زوجي في الواحدة صباحاً وقد علمت بذلك من أحد الجارات التي أتت تعلمني بموت كل عائلتي، لم تنجو إلا بنت واحدة.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
بريد الكتروني : info@helpdoctors.org صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

قال ابنها أحمد: لي أخت على قيد الحياة. يلعب أحمد بدبابة بلاستيكية وتطلب صباح منه أن يقدم لنا التمر. وعندما غادر الغرفة قالت لنا صباح أن ابنها أحمد لم يعد طبيعياً جداً، فهو لا يتركها أبداً ويستيقظ من نومه باستمرار كما يعاني من التبول اللاإرادي ولا يريد أن يلعب مع الأطفال الآخرين. ماذا عسانا أن نفعل؟ قالت ماري مريدة طمأنتها. قالت صباح: الله أقوى من الجنود.

وسط حقول اللفت

خرجنا من غزة متجهين نحو الحدود الشرقية، باتجاه إسرائيل لنصل إلى منطقة جحر الديك. مرت بنا السيارة بالقرب من مصنع اسمنت ضخم مدمر تماماً، أخرجت أسيا بندقية وهمية وأطلقت النار: طاخ طاخ ثم أضافت... يبدو أن الجنود كانوا يلعبون هنا بألعاب الفيديو . صحيح لأننا رأينا مباني أطلقت عليها النار وكأنها هدف للعب، يا له من أمر سخيف. هناك شيء من الميكانيكية والمنهجية في هذا الدمار. دخلنا منطقة ريفية جداً وهناك في البعيد خط من الأشجار... هناك إسرائيل، منطاد أبيض يطفوا في السماء على ارتفاع مائة متر، وهنا مخيم أنجز على عجل، وبيوت معزولة مهدمة، يعتني راع بخرافه بالقرب من شجرة تين. قال لنا إن الجنود قد قتلوا معظم خرافه ويضيف موجهاً كلامه إلى الدكتورة ماري (أنا غير متزوج).

يصعب علينا تحديد مكان من نريد لقاءه اليوم، علينا أن نجتاز متاهة من مخيمات البدو يعيشون في مدينة من الصفيح ومن بقايا الخشب والباطون. وصلنا أخيراً إلى فيلا معزولة بعض الشيء، كان أخوة ثلاثة بانتظارنا : صالح أحمد كريم أبو حجاج (30 سنة) يوسف (35 سنة) ومجاهد (46 سنة). وجوههم حزينة، لا ترى في نظراتهم هذا البريق الذي يميز الفلاحين في العالم كله. قصتنا جنونية يقول يوسف: "تجمعنا كلنا في بيت عندما اشتد القصف، كانت بعض البيوت قد دمرت في الجوار. اعتقدنا أن بيتنا أكثر أمناً، كنا 27 شخصاً في الطابق الأرضي مع الجيران وكان مجموع الأطفال 17 أكبرهم يبلغ 13 سنة. عندما بدأ الهجوم البري نادى الجنود على الناس بمكبرات الصوت: أخرجوا من بيوتكم ولوحوا بأعلام بيضاء وتوجهوا نحو المدينة. تلقينا أيضاً منشورات ألقتها الطائرات المروحية تطلب منا الشيء نفسه. قررنا أن نغادر معاً مع أعلام بيضاء وقدمنا النساء والأطفال على الرجال لكي يروا أننا لسنا مقاومين، أننا لا نشكل أي خطر.

مشت المجموعة كلها، كان الأطفال خائفون يبكون والكبار يلوحون بالأعلام، كنا نرى الدبابات والجنود بوضوح، وفجأة دار برج دبابة نحونا وأطلق على المجموعة، كانت أختي تحمل علماً، سقطت من الضربة الأولى ثم تلقت أمي أيضاً رصاصة ومشت بضعة أمتار ثم هوت، سمعناها تصرخ: الله أكبر.

استمر الجنود بإطلاق النار فعادت المجموعة باتجاه البيت، تاركة خلفها المرأتين الميتتين. في اليوم التالي دمرت الدبابات البيت المجاور وكان القصف عنيفاً جداً، فقال البعض أنهم يفضلون الموت في الخارج بدلاً من الموت محبوسين هكذا. فخرجنا وكنا نرى الطائرات فوق غزة ، فمشينا في الاتجاه المعاكس حتى وصلنا إلى بيت أحد الأصدقاء ، ومن هناك حاولنا التنسيق مع الجنود لكي نأتي بالجثتين. نجحنا بالاتصال بمنظمة إنسانية إسرائيلية وبعضو كنيست أيضاً لذلك اضطر الجنود للاهتمام بهذه القصة، وقالوا لنا على الهاتف إنهم لا يرون سوى جثة

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

واحدة، ثم رفضوا التحدث معنا. بعدها انتظرنا 16 يوماً حتى انسحب الجنود وعندما استطعنا العودة إلى البيت، وجدنا الأم بسهولة لكن البنت كانت قد وضعت تحت قطعة من الصفيح ومرت الدبابات فوقها واستغرقنا أربع ساعات لنجد كل أشلائها. الحمد لله هما الآن في القبر. لماذا يريدون قتلنا؟ أي خطر نمثل لهم؟ يرون جيداً أننا لسنا مقاومين، نريد فقط أن نعيش في بيتنا، أن نعيش بسلام، بأمان. كانت أمي تسكن هنا منذ 25 سنة وكانت تحب هذا البيت، سنحاول أن نبني البيت من جديد إن استطعنا. أعطونا 5000 دولار لإعادة بناء البيت. أخذنا يوسف لزيارة هذا البيت المشئوم. سكنه الجنود لعدة أيام. منذ ذلك الحين، لم يتغير شيء، لا توجد نوافذ في الطابق العلوي، والمطبخ محطم تماماً، عشرات أرغفة الخبز تتعفن على الأرض، وفي كل مكان رصاصات في الجدران وهذه الكتابة الجدارية باللغة الإنجليزية: هل سبق أن رأيت الجحيم؟ انظروا حولكم، إنه هنا، ها ها ها. والتوقيع هو رسم صغير لوحش من ألعاب الفيديو. قال لنا يوسف ونحن ننزل: لم أعد أفكر بالمستقبل، الله سيقرر لنا.

حمار ساهر

كان الصمت مخيماً في السيارة، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير في الكتابات على الجدران عن الجحيم، وأسمع في رأسي ضحكات الجندي الذي كتب ها ها ها، يا لها من قصة نرويها! لماذا شرعت في هذه المغامرة الغريبة التي تغمرني كل ساعة في الرعب أكثر فأكثر؟ لم أعد أفهم، لم تعد غزة مجرد كلمة، إنها رائحة، ونظرات تائهة، كابوس.
اتصلت آسيا بموعدنا التالي وقالت لي إنه شاب صغير قال إن عمره 17 سنة.
تبعنا الطريق، ومرة أخرى بيوت مهدمة على الجانبين، توجهنا نحو المغراقة، وعلى أحد الأنقاض بقي نصف السقف. يرفرف علم أخضر. هنا رأيت ثلاثة أولاد ينتظروني جالسين على قطع الباطون. صديقنا ساهر عطا عزام أكد لنا عمره، والآخران صديقاه، أحدهما معاق ويمشي على عكاز، رأس ضخمة وجسد صغير، مازال ساهر أعزبَ، ما زال في المدرسة، ويروي لنا حزنه: عندما اشتد القصف، خرج أبي فرأى الدبابات والجنود في الحقول المواجهة للبيت، عاد بسرعة وما كاد يصل حتى سقطت القنابل على الدور الأول، فنزلنا جميعا إلى الطابق الأرضي. ملأنا كل القدور والأواني بالماء لكي نصمد أطول وقت ممكن، ثم بدأنا نشعر بأن الجزء العلوي من البيت قد تهدم تماماً. بقينا ثلاثة أيام دون حراك وفي اليوم الرابع أخذ والدي عربة ليأتي لنا بالماء، أردت أن أذهب معه فقال لي: هذا خطير ابق مع العائلة.
كنا واقفين على عتبة البيت أنا وإخوتي، الأول 13 سنة والأخر سنة ونصف، استدرت وحدث انفجار، شعرت بشيء غريب، في الواقع رأيت نصف جسد أبي يمر من أمام عيني، كان أخي الصغير أيضاً مفتتاً تماماً وأصيب أخي الآخر بشيء ما في رأسه، صرخت: مات أبي وأخي الصغير ومحمد لا أدري ماذا أصابه. فكرت بالهرب فأخذت أخوتي وأخواتي وأغمضت أعينهم حتى لا يروا القتلى، ذهبنا نحتمي في كوخ من الصفيح على مسافة قريبة. استطعت الاتصال بسيارة إسعاف ، قلت : احضروا بسرعة، لدينا شهداء، لكنهم لم يستطيعوا أن يصلوا إلينا، كنا في منطقة يرفض الجنود السماح لسيارات الإسعاف بالدخول إليها، فقررت أن أذهب وأحضر بقايا جسد أخي الصغير، كان مقطعاً إلى 13 قطعة، أما أخي الكبير فقد اخترقت رصاصة جمجمته وكان مخه بجانبه. كنت بحاجة إلى سيارة

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

لنقلهم التحقت بأسرتي وفي اليوم التالي ذهبت أستأجر سيارة لأحضر أمي وجدتي وأخوتي وأخواتي إلى مدرسة الأنروا ثم حاولت العودة إلى البيت بهذه السيارة لكن الدبابات كانت قريبة جداً من البيت ففكرت بأخذ عربة وحمار قائلاً لنفسي سيتركونني أمر. نجحت في عبور الحاجز وحملت الأجساد على العربة ولكن عندما عدت بدئوا يطلقون النار علي، فألقيت بنفسي في حفرة على جانب الطريق وزحفت وتبعني الحمار وصلنا إلى سيارات الإسعاف فمات الحمار أمام السيارات بعد أن أصيب بعدة عيارات.

نعيش الآن في شقة بغزة، أعتقد أنني سأتوقف عن الدراسة لأن علي أن أعمل لأعيل أسرتي، لأننا لم ننتهي من دفع ثم البيت الذي أصبح الآن أنقاضاً، أريد أن أحصل على رخصة سواقة وأعمل سائقاً. أبقى مع أسرتي في الليل، أما في انهار فآتي دائماً إلى هنا، دم أبي وأخوتي على الجدران، مكاني هنا أين لي أن أذهب؟ أخاف على أسرتي، أمي حامل ماذا سنقول للطفل عندما يسأل عن أبيه؟ كلنا تراودنا الكوابيس وصحيح أنه لو سنحت لي الفرصة في يوم من الأيام، فسوف أنتقم، أريد أن أقول لكل من لا يعرف ما يحدث هنا، تعالوا لتروا الحقيقة، تعالوا لتروا كيف يعامل أطفال غزة.

سألنا أحد رفقاء ساهر قائلاً: أتريدون رؤية الدم على الجدران؟ اعتذرنا عن قبول دعوته، فقد كنا في الحقيقة مهزومين تماماً، نظرت إلى ماري لور، نعم صحيح يجب أن نبتعد بعض الشيء، أن نتنفس لبضع دقائق، أن نأكل؟ يبدوا الأمر صعباً، ربما علينا أن نمشي نحو حديقة ملاهي نراها من بعيد، ربما نرى العربة الكبيرة تدور وسط ضحكات الأطفال... ربما.

حفرة في الحديقة

يسخن عوني سيارته، نسير الآن في منطقة دفيئات زراعية بلا أغطية، لم يتبق سوى الهياكل المعدنية فوق حقول قمح. نحن الآن في دير البلح، وسط قطاع غزة تقريباً. نحن ذاهبون إلى بيت في وسط الحقول ونشاهد في هذه الحقول حفراً هائلة نتجت عن قصف طائرة إف 16 . حفر صفراء على بساط من الخضرة. استقبلتنا عائلة بأسرها في الحديقة، في مخزن من الصفيح، أحضروا لنا الوسائد لنشعر بالراحة، الزهور من حولنا، نشم رائحة الياسمين ونسمع صوت عنزة ودجاجات، إنه ريف طبيعي كما نسمع ضجيجاً حاداً. الرعد؟ لا أنه مجرد قصف! هكذا قال لنا متبسماً عواد عايش السميري، أحد الفلاحين حول دير البلح، 53 سنة.

استقبلنا عواد برفقة نساء وأطفال ورجال آخرين. قدم لنا الشاي الساخن المعطر بنباتات طازجة، ترافقه زوجته أمنة، وأخته تمام معتمرة حجاباً أبيض، ورباح عواد ابن عم له دمر بيته، كلهم يتحدثون في نفس الوقت، كلهم يريدون أن يقولوا لنا كيف قصفتهم طائرات الإف 16 . يتذكرون أن أمهم كانت في الخارج قرب الفرن الطيني، كانت تشعل النار وكان الدخان ينبعث من الفرن. لابد أن هذا الدخان هو ما لفت انتباه طائرات الاستطلاع؟ ومن خلفها القاذفات الكبيرة، هم يعتقدون ذلك... كان أحد الجيران يجمع البازيلاء عندما سمع انفجاراً قوياً في البيت، رأى ابنه نوافذ البيت تطير متهشمة وما زالت آثارها في فروة رأسه، أحضروه لنا لنرى ونصدق. كان الأطفال يلعبون بشظايا القنابل بفخر ويضعونها على الرمل...

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

يقول عواد: هذه ليست قنابل فسفور فهي تنفث أولاً دخاناً أبيض خفيفاً ثم تنفجر في السماء. لقد تلقينا الكثير منها. عندما تسقط من طائرات الإف 16 تحدث أضراراً كبيرة على الأرض. تساءلنا: ماذا عسانا نفعل؟ أنرحل أم نبقى؟ ثم حدثت هذه الفاجعة فكانت بمثابة إشارة ، كان محمود، أحد الجيران، واقفاً مع زوجته وابنه الرضيع أمام البيت، فسقطت قنبلة عليهم، مات الأب وماتت الأم، والغريب في الأمر أن جسمها قطع نصفين، وأن الجزء العلوي من جسمها قذف في الهواء وكان رضيعها بين ذراعيها ... لم يصب بأي مكروه، فقط جراح خفيفة وهنا قلنا إن علينا أن نبتعد عن هذا المكان. وضعنا الأطفال على الحمير وأخذنا بضع بطانيات وهربنا نحو مدرسة الأنروا، فهم بالتأكيد لن يقصفوا

مدرسة؟ عندما بدأنا في المشي، كنا متأكدين أننا سنموت، كانت طائرات الاستطلاع تحلق فوقنا وقال لنا بعض الناس إن طائرة الإف 16 مهما كانت مرتفعة في السماء، فبإمكانها أن تصيب إنساناً يمشي على الطريق. كنا نرى بوضوح المروحيات والدبابات تصل باتجاه بيوتنا، اعتقدنا بسذاجة أنها لن تقصف لأنها فارغة. في الحقيقة دمروا الكثير من البيوت ومشينا لمسافة 8 كيلومترات حتى وصلنا إلى المدرسة، كان الباب مغلقاً والمدرسة فارغة، دخلنا المدرسة وبقينا فيها كما استطعنا لمدة 15 يوماً. كانت الأم تعود يومياً إلى المزرعة لتطعم الحيوانات، لم يعد لنا الآن إلا القليل وضعت العنزة وليدها لكنها مريضة أعتقد أنها ستموت. كنا دائماً نعيش في خوف، حتى قبل الانسحاب، كنا محاصرين لم نكن نستطيع الدخول أو الخروج إلا في ساعات محددة.

ما العمل اليوم؟ البحر من جهة والجيش من الجهة الأخرى؟ أشعر أن الحرب قد تبدأ في أي لحظة، هذا مصيرنا، لا نستطيع أن نرحل من هنا، أجدادنا كانوا هنا وأجداد أجدادنا أيضاً حتى إننا كنا هنا قبل أن تعبد الطريق. بدأت امرأة أخرى تحدثنا عن الأطفال: لم أعد أعرف ما أفعل، يبقى الأطفال ملتصقين بأمهم طوال النهار، وفي الليل يستيقظون ويصرخون. يجب أن تقولوا في كل مكان أننا مواطنون طبيعيون وأننا نريد العيش بسلام ونريد أن يصبح ابننا طبيب... وابنتنا مهندسة، أما هو (وتشير إلى أحد الأولاد) فقد كان محظوظاً جداً لأنه سافر لفرنسا سنة 1999 ليؤدي رقصات شعبية. وبعد الشاي قدم لنا أحد الأطفال عصفوراً في قفص وقال لنا الجميع أن علينا أن نسمع لهم وأن نقل رسالتهم. أرادت العائلة أن تعطينا قطعة أرض من أجل عيادتنا. كان علينا أيضاً أن نزور حفر الإف16. في السيارة وفي طريق العودة، تبادلت مع الدكتور ماري انطباعاتي، كنا أمام ناس بسطاء للغاية، وكانت قصصهم مدعمة بدلائل ملموسة (القنابل والحفر) وكأنهم يعتقدون أننا لن نصدقهم، وكأن على المعاناة أن لا تخيف الآخرين لدرجة التخلي عنهم. نعم، التقينا بناس يخافون التخلي عنهم.

عيد رأس السنة غريب

كانت الجائزة بالنسبة لنا هي الذهاب إلى بيت جمال. أعد لنا جمال دجاجاً وخضار، كنت أشعر بجوع شديد فتواجدي باستمرار في جو مليء بدخان السجائر بدأ يُهيج حلقي. أتى شاهد حرب آخر ليخفف عني هذه العصبية، وهو الشاهد الوحيد بدون اسم في هذا الكتاب لأسباب تخصه هو، أسباب أظنها مشروعة فليس من الممكنَ دائماً التحدث

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

بحرية في ساحة الحرب... ككثير من الغزاويين، قام صديقنا بجمع أفراد عائلته: الأعمام وأبناء الأعمام والأخوات وبقية العائلة. كان جمع العائلة في مكان واحد يتكرر في كل مكان في غزة، وكأنهم أقل عرضة عندما يكونون مجتمعين، أو لربما لأن الخوف يخف مع العدد الكبير.

دهش أحمد – فلنسمه هكذا – في اليوم الأول عندما قالت ابنته هذه الكلمات: بابا أنا خائفة... كانت هذه أول مرة تستعمل فيها ابنتي البالغة من العمر سنتين هذه الكلمة. في الأيام الأولى من الحرب، لم أتوقف عن الذهاب إلى العمل، كانت المدينة طبيعية وكان هناك عدد قليل من الناس في الشوارع أغلبهم يذهب إلى الجنازات، وكان من الصعب جداً أن تجد سيارة أجرة فالتاكسيات لم تكن تريد أن تمر في بعض الأماكن، كاجتياز جسر مثلاً، وعندما تكثف القصف أتى أخي وزوجته وأطفاله إلى البيت كنا نعيش جميعاً في غرفة واحدة وغالباً بدون كهرباء وكنا نتناول أطعمة محفوظة.

لكن قبل تلك الفترة، أتذكر على وجه الخصوص ليلة 31 ديسمبر، كنا نتفرج على التلفزيون طوال الليل تقريباً، كنا نرى أناس سعداء يتمنون لبعضهم البعض سنة جديدة طيبة، يحتفل العالم كله بالسنة الجديدة. أما نحن فكنا نعتقد أننا سنموت، لم نعد نحتفل منذ سنوات ومع ذلك تمنينا سنة سعيدة وصحة جيدة، أعتقد شخصياً أن في هذه العبارات كثيرا من الفكاهة والسخرية. في يوم 3 يناير، عدت إلى العمل كان الجميع يتحدث عن شائعات عن هجوم أرضي، كنا نرى في وجوه الناس الخوف والانتظار... فلننتهي من الأمر. وفي الرابع من يناير، عاد القصف ليشتد من جديد، كنت أقول لابنتي إنها بالونات تنفجر. وعندما انقطعت الكهرباء ولم نعد نشاهد التلفزيون، سمعنا الأخبار على الجوال، لم نكن نعرف من أين سيأتون، من البحر أم على الطريق بالدبابات. ولتخفيف التوتر، أتذكر أنني أكلت جوافة مع ابنتي كان لدي شعور بأن الحرب ستكون عنيفة جداً فبدأت أقرأ. بحثت عن كتاب تاريخ يتكلم عن بيروت في القرن 18 .وفي صباح اليوم التالي لم أذهب إلى العمل كان ذلك صعباً عليّ لكن لم يكن هناك تلفون وكثير من الناس كانوا غائبين. وفي نفس المساء قال لي أخي أن آتي إلى بيته لأن بيته كان آمنناً جداً. وما أدهشني هو أن أخي الذي لا يحلق ذقنه كثيراً، كان ناعم الوجه في ذلك اليوم وكأنه رجل ثلج... لحسن حظنا أننا رفضنا الذهاب، ففي الساعة الثالثة سقطت ثلاث قنابل متتالية في حي أخي الآمن جداً! بعد القصف، كان بيتهم مغطى بالتراب وكنا نرى اللهب يخرج من كل مكان وعلى أثر ذلك أتى أخي وزوجته وأطفاله الثلاثة إلى بيتي ثم قضينا معظم وقتنا مجتمعين في غرفة النوم فقد كانت الأكثر أمنا في البيت، كنا نقرأ ونلعب مع الأطفال لنطمئنهم، كنا نشعر وكأن مذبحة ستحصل والغريب في الأمر أنني لم أكن أشعر بالخوف فعلاً، فمنذ سنوات لم يعد لدينا خيار فنحن معرضون للعنف باستمرار. في اليوم الثالث للهجوم البري، أتى أخي الثالث إلى البيت هذا يعني خمسة أشخاص إضافيين، خمسة أفواه يجب إطعامها، كان يجب علينا أن نصنع الخبز بالإمكانات المتوفرة.

وبخلاف الحديث عن الطعام... تحدثنا أيضاً في السياسة.

أي مستقبل لغزة؟ الأمل يتضائل يوماً بعد يوم، نسأل أنفسنا أحياناً من هو العدو الحقيقي؟ لقد أصبحت أنتمي لتلك الفئة من الناس التي تفكر في مغادرة البلد، لكن السؤال لا يطرح طويلاً ، ففي مثل هذه الظروف لا شيء ممكن، نحن لا نعيش احتلالاً عادياً... بل نواجه القسوة والغباء.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
بريد الكتروني : info@helpdoctors.org صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

أسفار

أسفار

في المساء نفسه، وبينما كان ريجيس مصدوماً جداً أمام مستشفى القدس الذي عمل فيه أثناء الحرب، اكتشف حجم الخسائر وآثار الرصاصات بالقرب من نافذة غرفته. دُعينا إلى بيت عماد. عماد فلسطيني يعمل في اللجنة الدولية للصليب الأحمر وكان يدير متجراً للأطراف الصناعية. نُدين لعماد كشفه عن شهداء عائلة السموني. بينما كنا نتناول الشاي والقهوة ونأكل الحلويات في صالون يحتوي على مدخنة حقيقية، لم يستطع عماد منع نفسه من ذكر تلك اللحظة التي اكتشف فيها أجساد 21 جثة، معظمهم نساء وأطفال.

لقد رأيت أشياء كثيرة، لكني لم أر أبداً مثل هذا العنف، اتصلت بكل جمعيات حقوق الإنسان ومن أعرفهم من الصحفيين. هذا غير معقول، ألا يوجد عدل في هذا العالم؟ بقيت في ذاكرتي رائحة الأجساد، وبعد بضعة أيام، كنت ما أزال أشم تلك الرائحة في الحمام. يمكن أن تصبح غزة رائعة، هنا كثير من الناس اللطفاء، هنا بحر وشمس، يمكن أن تصبح غزة جنة، حلمي اليوم هو أن أغادر إلى نيوزيلندا، بلد هادي أخضر. أحلام أهل غزة كأحلام أي إنسان آخر: العيش بسلام، شراء سيارة، سفر، امتلاك بيت، ممارسة مهنة، أن يكون الأطفال بأمان. أخشى ما أخشاه أن تبقى الأحلام أحلاماً، يجب أن لا ننسى أنه عندما يقلق الوالدين، فإن الأطفال يقلون أيضاً. وفي هذه اللحظة سمعنا أغنية أسفار، أسفار على التلفزيون للمغنية ديزايرلس تقول:

أسفار، أسفار
لا تتوقف
فوق الأسلاك الشائكة
قلوب تُقصف
انظر إلى المحيط...

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

لا أستطيع القول أنني أمضيت ليلة طيبة وأنا أتذكر هذا اليوم. على وجبة الإفطار مع الأطباء، كنت أضحك بعصبية وأنا أذكر ما تعرضت له في اليوم السابق وفي هذه البعثة الأخيرة إلى غزة. سوف نتوجه بالسيارة إلى الجنوب، نحو الحدود المصرية حيث أوقفنا قبل بضعة أسابيع، لكننا سنقف هذه المرة في الجهة الصحيحة، إن جاز التعبير. ترافقنا الدكتورة ماري في هذه الرحلة التي تبدأ بطريق طويلة على ساحل البحر. لنتذكر أن قطاع غزة هو شريط ساحلي بطول 40 كيلو متر وعرض 15 كيلو متر على ساحل البحر المتوسط. وفيما عدا الحرب، تزرع في غزة الفراولة والقرنفل والطماطم الكرزية والخيار.

ورود على قنبلة

حدث لقاءنا الأول مع رجل يسكن قرب خان يونس، ماجد فتحي نجا، موظف سلطة قديم. لماجد أربعة أطفال، ولدان وبنتان، ويقع بيته على بعد 300 متر فقد من الحدود الاسرائيلية. استضافنا في حديقة فيها بعض أشجار التين : في 1/3 قصف الإسرائيليون منطقتنا، كان الدخان كثيفاً لدرجة أننا لم نعد قادرين على البقاء في مكاننا، ثم ألقوا منشورات من الطائرات تأمرنا بترك بيوتنا بأسرع وقت ممكن. خرجت مع زوجتي وأطفالي دون أن نأخذ معنا أي شيء، وأتينا نسكن في هذا البيت. في 1/10 ، حوالي الساعة العاشرة مساء، قصفنا الإسرائيليون بالقنابل الفسفورية، كنا 20 مدنياً في البيت، خرجت مع عدد من الكبار لإطفاء النيران التي اندلعت في كل مكان وذهبنا نبحث عن العجائز ممن يعيشون وحدهم. وفي تلك اللحظة حدث قصف جديد وكانت قنابل هذه المرة ثقيلة جداً، دخلت إحداها في البيت، اخترقت السقف والجدران وانفجرت بزوجتي في صدرها، دخلت البيت وكانت زوجتي تفقد الدم وماتت دون أن أستطيع فعل أي شيء. كان هناك أيضاً أطفال جرحى وامرأة مصابة في عينها وعجوز أخرى محطمة جمجمتها. استطعنا أن نضع كل هؤلاء في سيارة إسعاف وفي المستشفى، حتى الأطباء شعروا بالخوف لأن الوجوه المجروحة كانت مغطاة بالرمل واعتقدوا أنه فسفور. أريد أن أتقدم بشكوى، لا يمكن أن نقبل أن يكون مواطنون بسطاء ضحايا وأن يسكتوا. لم يعد لدي بيت، فقدت زوجتي، وأطفالي لا يريدون الذهاب إلى المدرسة، كنت أفخر بهم أما الآن فهم خائفون، يشعرون بصداع، لم يعودوا قادرين على التركيز، علي أن أبني حياة طبيعية من جديد. وهنا يشير إلى امرأة شابة بلباس أسود كانت جالسة بينما كنا نتحدث: إنها موافقة على الزواج بي وقد أصيبت هي أيضاً، لقد نزعوا لها شيئاً من العين، أنا أعرف ما هي المعاناة فقد قضيت بعض الوقت في السجون الإسرائيلية وانتظرتني زوجتي 8 سنوات... كل هذا لتنتهي مسحوقة في قبر.

ذهبنا معه نزور البيت في المكان الذي سقطت فيه القنبلة، بقي بعض الركام وآثار دم وبعض الورود البلاستيكية وضعت هناك. بالإمكان متابعة مسار القنبلة التي ثقبت السقف والجدران، لم ينظف شيء. وقبل أن يتركنا قال ماجد : يجب أن نناضل لتسن قوانين تمنع قصف المدنيين، نريد فقط أن يعم السلام العالم أجمع. لماذا العيش مع الإسرائيليين صعب إلى هذه الدرجة؟ لماذا؟

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

اقترب رجل عجوز بعكازه مني يدعوا الله ثم يبكي وينهار بين ذراعي، أحزنني ذلك جداً، أريد أن أقول شيئاً لكن لا تسعفني الكلمات، أضمه بين ذراعي وكأنه جدي.

علم أبيض من أجل الموت

وصلنا لبيت نورا إبراهيم النجار الصغير في وسط فوضى من البيوت المدمرة، وعلى بعد بضع مئات من الأمتار من الحدود، وافقت نورا أن تكلمنا لكنها رفضت أن تصور، حضر أيضاً راشد النجار قريب نورا ليحكي لنا المغامرات التي عاشها الناس في هذه المنطقة الحدودية. نورا زوجة ثانية 33 سنة، وطفلان ترتدي حجاباً وثوباً أحمر وتعتني بابن الزوجة الأولى. نحن الآن في غرفة صغيرة جداً لا تحتوي إلا على القليل من الأثاث. الكراسي لا تكفي ،طفلين مشاغبين يجعلان الغرفة تبدو أصغر وأصغر.
يوم 11يناير الساعة 10 مساءً، قصف الإسرائيليون الحي بقنابل الفسفور، قضينا وقتاً طويلاً نحاول إطفاء النار ثم عدنا ننام في بيوتنا عندما توقف القصف. في الخامسة صباحاً، طرق الجيران بابنا قائلين: انتبهوا عليكم أن تخرجوا وتصعدوا على السطح بأعلام بيضاء، إنهم يسحقون البيوت بدباباتهم وجرافاتهم. خرجنا جميعاً فأمرنا الجنود بمكبرات الصوت أن نترك البيوت وأن نذهب إلى وسط المدينة، كنا نرى الجنود يدخلون البيوت من فتحات صنعتها الجرافات فخفنا جداً لأنهم كانوا يتقدمون نحونا، فكرنا أن علينا أن نتجمع وأن نقدم النساء والأطفال مع أعلام بيضاء، سيشفق الجنود لحالنا؟ كانت الزوجة الأولى قد عادت من الحج قبل فترة وجيزة وكان لديها الكثير من الملابس البيضاء مزقناها لنصنع منها أعلاماً ربطناها على عصي المكانس ثم خرجنا – وترينا عبر النافذة المكان الذي مرت منها– كنا نحو 50 شخصاً، أطلق الجنود النار من بيت في الجهة المقابلة فسقطت العمة ميتة. وفي حركة هلع تراجع الجميع، فطلب منا الجنود عدم التحرك وإلا قتلونا، كان أمراً فظيعاً، كنا على بعد أمتار من جثة المرأة وكانت ابنتها، 14سنة، تصرخ، كانت تريد الاقتراب من أمها وعندما هدأ الوضع، أي عندما انتهت الدبابات من سحق البيوت، أخذنا الأطفال إلى مدرسة للاحتماء. قصفوا المدرسة فيما بعد لكن لم يسقط جرحى. جراحنا ليست فقط في الجسد، جراحنا في الروح أيضا.

بدأ راشد الآن بالحديث. كان راشد شرطياً في السلطة الفلسطينية يعيش بالقرب من هنا في بيت جميل جداً في الظاهر، طالما أنك لا تنظر إلى الواجهة المقابلة للحدود، فقد دمرت القنابل كلياً الواجهة الشرقية للبيت. وفي الداخل عدة غرف مزقتها الرصاصات، وفي غرفة النوم سرير مفجر، لكن لحسن الحظ لم يكن أحد نائما هنا في ذلك اليوم. معظم الفلسطينيون يحبون العيش بسلام يجب، أن تقولوا ذلك في كل مكان في العالم. يكرر راشد: نريد أن نرى أطفالنا يلعبون بلعبة أخرى غير لعبة الحرب، نخاف كلنا أن نعيش مرة أخرى ما حدث، يجب أن يتحرك الجميع لتتوقف الحرب. عندما انحنت ماري–لور لتلتقط بعض الصور للحدود من نافذة المطبخ، أبعدها رائد قائلاً: انتبهي، قد يطلق الجنود النار، لا يجوز لنا التقاط الصور هنا.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

في بلد الأنفاق

كلما تقدمنا نحو الجنوب، كلما بدت المدن أكثر بؤساً وذلك رغم أننا نرى أسواقاً ومتاجر تفيض بالبضائع. يلفت عوني انتباهنا: "إنها بضائع تمر عبر الأنفاق الشهيرة" وهو مستعد أن يصطحبنا لنرى كيف هي.
أصبحنا الآن على بعد أمتار من الحدود المصرية، قريبين من هذا المعبر اللعين الذي لم نستطع المرور عبره قبل بضعة أسابيع. يكفي أن تمر ببعض البيوت وبعض المباني لتصل إلى ساحة مملوءة بالخيام، خيام حقيقية لكنها مصنوعة نايلون ممدود على أوتاد خشبية. ترى في كل مكان أولاداً صغار يدفعون عربات مملوءة بالرمل وتسمع صوت محركات وصوت مولدات كهرباء تدفع الهواء إلى داخل الأنفاق. بحث عوني عن صاحب نفق يعرفه لكي نستطيع زيارة المكان، وما أدهشنا بالدرجة الأولى هو عدد الأنفاق، مئات من الإنفاق.
وعندما استطعنا أخيراً أن ندخل إحدى هذه الخيام، شهدنا حركة دائبة لعمال الحفر، يعملون بسرعة، حافية أقدامهم. ينزلون عربة فارغة بحبل إلى أسفل البئر، فتصعد أخرى محملة بالرمل مكانها. قيل لنا أن هذا النفق واجه مشكلة صغيرة وأن فريقاً يقوم بعلاجها الآن. بئرُ النزول مدعم كلياً بألواح من الخشب ويصل عمقه إلى نحو 20 متراً. أما النفق الأفقي، فيمتد إلى نحو 200 أو 300 مترا قبل أن يصل إلى مصر. التقطنا بعض الصور لكن صاحب النفق تدخل بسرعة وطلب منا الرحيل. أعترف أنني اعتذرت عن دعوة للنزول إلى النفق.

حان وقت لقائنا مع خالد محمد عاصي زنون. يسكن خالد في عمارة صغيرة تطل نوافذها على الأنفاق وعلى مصر. كتابات كثيرة على الجدران السوداء وعلى الدرج، أغلبها صور شهداء. أدخلنا خالد إلى الصالون وأجلسنا على وسائد. لم يعد هذا الرجل البالغ من العمر 45 سنة قادراً على العمل. خرج من السجون الإسرائيلية سنة 1994 وقد أتلفه السجن. لخالد ست بنات، ثلاث منهن أصبن بالصمم والخرس وبالتالي فالثلاث الأخريات يستعملن لغة الإشارة. قبل أن نبدأ الحديث، أصر خالد أن نشرب القهوة، قهوة أعدها بنفسه. قدمت لنا اثنتان من بناته، عفاف وحليمة الموز وقطع من كعك بجوز الهند، ثم قدم لنا بقية اسرته وهو يكاد يعتذر عندما أتى دور ابنته البكر، خلود مغطاة كلياً باللون الأسود، لا تلمح إلا جمال عينيها المكحلة، فيقول خالد: "هي التي أرادت ذلك". رأيت كل شيء، الدبابات والجنود وطائرات إف 16 والطائرات المروحية. هنا في رفح، وبسبب الأنفاق نتعرض للقصف كثيراً جداً. اليوم عندما قصفوا اهتز المبنى، اعتقدنا أنه سينهار وبدأ الأطفال بالصراخ. أخذت بناتي وزوجتي وخرجت لأضعهن في مكان آخر أكثر أمنا، ثم عدنا إلى البيت. وفي اليوم الثاني عشر للحرب، دخل بيتنا صندوق حديدي ثقيل جداً عبر السطح، كان الصندوق مليئا بأوراق كتبت عليها هذه الكلمات: اخرجوا من بيوتكم، ابتعدوا عن الشوارع القريبة من الحدود، ابتعدوا 200 متر على الأقل، اذهبوا نحو شارع البحر، إذا تركتم تلك الشوارع فسوف نقتلكم. التوقيع ... الجيش.

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

أيضاً رأى خالد المقاومين، بل إنه صور مشهداً بجواله. ترينا خلود هذا المشهد بفخر على حاسوبها. نرى دبابة تتقدم في شارع صغير، ثم فجأة نرى لهباً، واضح أن الدبابة انفجرت لكن من الصعب أن نحدد إن كان هذا المشهد صور في أثناء هذه الحرب أو في الحرب السابقة... شعر خالد بالحماسة وروى لنا كيف أنه خرج عدة مرات للشوارع ليساعد سيارات الإسعاف على إجلاء الجرحى والقتلى ثم يشير إلى صورة أخيه الشهيد المعلقة على الجدار، شهيد الحرب الأخيرة، بناته فخورات جداً. فقدت العائلة الكثير جراء القصف ، كانت الملابس تتطاير، لم يعد لدينا نوافذ، حتى الفرشات ليست ملكنا.

لماذا لا نعيش بسلام... هذا ما قالته إحدى الفتيات بلغة الإشارة. عاد خالد ليتحدث: أريد أن أخاطب كل الأوروبيين، يجب أن يروا ما يحدث للأطفال الفلسطينيين، يجب أن يتمتع هؤلاء الأطفال بالحق في الحياة مثل الجميع، نعيش هنا الكوابيس والأرق، بدون أي أمان. هل هذه حياة طبيعية؟ يريد خالد أن يعرفنا على فتاة يصفها على أنها مضطربة جداً، تركنا الشقة فألقت علينا الفتيات التحية بلطف بالغ.

صمت صبية

يكفي أن تقطع الشارع، أن تدخل باحة خلفية متسخة بعض الشيء، مملوءة بالبقايا والأوراق ومخلفات المطبخ... تجلس عائلة كاملة في الظلام على سرير في كوخ سقفه من الصفيح. يتكلم الأب بصوت عال، لا تستطيع الأم أن تتحرك فهي بدينة جداً –9 أطفال– وساقاها لا تقويان على حملها، يؤشران على عايشة، ابنتهما ذات ال17 سنة، قائلين: "قبل الحرب، كانت طبيعية". تحدق الصبية بنا بصمت، تائهة في أفكارها، سأله خالد" احكي لنا قصة عايشة. صمتت البنت، أصر الأب صارخاً بصوت أعلى من ذي قبل. رأيت نظراته تتأرجح وفجأة ألقت نفسها أرضاً تصرخ وتضرب خالد وأبيها اللذان يحاولان السيطرة عليها. أبعدتهم ماري لور وأخذت وجه عايشة بين يديها وهدأتها. عادت ببطء إلى رشدها لكنها بقيت صامتة. الغريب أنها ابتسمت في حين كانت أمها تبكي: "كانت بنتا شجاعة جداً، ذكية جداً، ومنذ أن بدأ القصف أصبحت مجنونة... ويضيف خالد : المشكلة أن هناك ألف حالة مثل عايشة في فلسطين. أختها هبة أصبحت أماً، تقدم الشراب لعايشة. هناك شيء محزن أمام هذه المرأة التي تشرب كالطفل الرضيع. تعيش هذه العائلة المكونة من 12 شخصاً في غرفة واحدة. شهدنا وصول أصغر الأطفال يخرج من المستشفى لقضاء العطلة الأسبوعية يحمله أخوه الكبير. مؤخراً، يوم 10 فبراير، سقط حجر من البيت المقصوف وكسر جمجمته، بقي في غيبوبة لأكثر من 20 يوماً ، أجلسوه إلى جانب أخته وفي ذراعه قسطرة (IV Catheter)، رأسه محلوق ولا يستطيع المشي بالكاد يتكلم، في السابق كان يعشق كرة القدم. همس خالد مساكين...

جمال عيد –الحظ والخوف–

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

حديقة فندق المارناهوس المغطاة مليئة بالزبائن، مليئة بدخان الشيشة. لقد استضفنا خلقاً كثيراً في المساء السابق. أتى الدكتور وليد وابنته لإلقاء التحية علينا، ابنته فتاة جميلة جداً وقد كانت الوحيدة في هذا المكان، لم تكن تربط شعرها حتى. كما استقبلنا أبو جعفر، شخصية من غزة متزوج من فرنسية. لأبي جعفر حلمين: زيارة متحف اللوفر وإنشاء مصنع أجبان فهو يريد أن يفتتح مصنع جبنه في غزة.

قبل أن نتناول وجبة أخيرة سمعت قصة جمال الذي سيصبح مدير العيادة التي يعمل عليها ريجيس اليوم. لقد انطلق المشروع، شقة متواضعة في وسط خان يونس... يبلغ جمال عيد من العمر 45 سنة: "أعيش في حي هادئ، وحتى بداية الحرب، كنت أعتقد أنه أكثر الأماكن أمناً في غزة فلا يسكن هنا سوا أسر موظفين، والإسرائيليون يعرفون ذلك جيداً. لكن بمجرد أن بدأت الحرب، لاحظنا أن الجيش الإسرائيلي كان عدوانياً جداً تجاه المدنيين، فقررت أن أعيش مع أسرتي في المكان الذي اعتقدته الأكثر أمناً وهو الممر. تجمعنا مع عائلة أختي، كنا عشرة أشخاص مكدسين في الممر. حاولت في

البداية أن أطمئن هذا الجمع الصغير قائلاً لهم إن المبنى لن يستهدف أبداً. قبل ليلة الاجتياح، تركت مستشفى القدس حوالي الساعة 8:30 . كان كل شيء هادئا وفارغا كما في الأفلام. وحدها طائرات الاستطلاع كانت تشق السماء، كان علي أن أقطع مسافة 250 متراً فقط لأصل لبيتي إلا أن هذه المسافة بدت لي طويلة جداً. عندما وصلت إلى البيت بدأ المهرجان. لم نكن ندري إن كانت الطائرات المروحية أم الدبابات هي التي تطلق النيران. ذهبت إلى النافذة لأرى ما يحدث ورأيت بسرعة خطوطاً مضيئة تتجه نحوي، اعتقدت أنهم يستهدفوني وأنني سأموت. أصاب صاروخ المبنى المجاور وانفجرت قنابل أخرى. لحسن الحظ أن جاراً يسكن في الطابق السفلي ترك لي مفاتيح شقته، فقررت أن آخذ كل العائلة إلى بيته معتقداً أننا سنكون أقل عرضة من قمة المبنى. عندما أنزلتهم إلى أسفل، صعدت مرة أخرى لأرى إن كان هناك أحدا آخر. أخذت معي عائلات أخرى تبعتني في هذا المكان الأكثر أمناً في الطابق الثاني. ازداد إطلاق النار والقذائف شدة ، انقطعت الكهرباء، لم يكن معنا سوى بضعة شموع وبما أن العدد كان كبيراً، تجمعت النساء والأطفال في الممر والرجال في الصالون. في الليل أطلقوا النار على المبنى وبدأ كل شيء في الغرفة يرقص، لم نكن ندري متى سينهار كل شيء، بدأت أجري اتصالات في كل مكان بهاتفي الجوال لكي أخبر أن من بقي في هذا المبنى هم من الأبرياء فقط، لكن حتى مستشفى القدس كان يتعرض للقصف، وعندما طلع النهار، رأيت الدبابات تتحرك بسرعة كبيرة في الحي ومع ضوء النهار شعرنا ببعض التحسن. وفي مساء اليوم التالي قامت إحدى السيدات بإعداد ما تيسر من طعام بما وجدته في البيت وعند حلول الليل بدأت النساء بقراءة القرآن. أما أنا فقد نفدت سجائري وازدادت عصبيتي خاصة وأننا كنا مقتنعين بأن الجيش الإسرائيلي سيأتي عما قريب. حوالي الساعة التاسعة مساء، طرق أحدهم الباب فأصابنا خوف شديد وعندما فتحنا الباب، بعد أن قامت النساء بالمثول معنا في مدخل الشقة ، ذهلنا عندما وجدنا أمامنا امرأة شابة تحمل رضيعا بين ذراعيها، كان برفقتها شيخ جاءا يطلبان منا حفاضات للرضيع ببساطة. لم أكن أدري هل أضحك أم أبكي.

حسناً، بما أنها وصلت إلى هنا فمن الممكن أن نتنقل في المبنى. صعدت أنا وزوجتي إلى شقتنا وأخذنا كل ما استطعنا حمله من غطاءات و خبز و سجائر حتى بدأ إطلاق النار من جديد. مرت ليلة أخرى وفي الصباح نظرت

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

بحذر من النافذة، لم يعد هناك دبابات، ليس هناك أحد فنزلت. كان المصعد مفجراً وكذلك مدخل المبنى، رأيت هياكل سيارات محترقة وأجسادا ممدة قرب الأنقاض. عندما بدأت أمشي في الشارع و الناس بدئوا ينزلون بدورهم. صعدنا لاحقاً لمساعدة جارنا في الطابق الاخير من المبنى، كان الباب سليماً لكن عندما فتحه أصبنا بصدمة، لم يكن هناك شيء خلف الباب، لا شيء على الإطلاق، لقد اختفى الأثاث بفعل قذائف الدبابات، فقط قطعة من تلفزيون، كانت كل الجدران سوداء محترقة، كما لو أن الإسرائيليين وجهوا لنا رسالة: لا رحمة بأحد نستطيع أن نقتل من نريد... ماذا سنفعل غداً؟

ماذا سنفعل غداً؟

بقي سؤال جمال دون جواب. في أفضل الأحوال، يفرض سؤاله علينا، نحن في الخارج أن لا نكتفي بالتعاطف. كانت عودتنا إلى القدس لحظة غريبة، في نقطة خروج إيرز، كان المشهد فوق واقعي، ماسح للجسد كله، مشي طويل في ممرات فارغة... نداءات بمكبرات الصوت ووجود مكثف لكاميرات المراقبة. إلا أننا خرجنا رغم كل شيء بسهولة نسبياً وذهبنا لنزور القدس. لن أقدم تحليلاً سياسياً إضافياً حول هذا العالم الذي يعيش فيه الجميع: عرب ويهود ومسيحيون ، يضاف إليهم حجاج من جميع بقاع العالم (وخاصة من روسيا) القدس جميلة، أكثر من جميلة، ومليئة بالغضب رغم الأغاني الصادرة من مجموعات الحجاج بالقرب من قبر السيد المسيح. وبينما كنا نتمشى في الأسواق، ألقى علينا شاب عربي حجارة، اعتقد أن العنف ليس مصيراً محتوماً لكن له قصة، قصة تنتمي إلينا جميعنا وبإمكاننا أن نغيرها جميعنا.

كان الخروج من المطار حسب رأي مثيرا. ويقول ريجيس إنه سهل نوعاً ما، فلم يستغرقنا الخروج إلا... ثلاث ساعات لنصل إلى داخل الطائرة. بإمكاننا أن نتفهم أجهزة الأمن فنحن قادمون من غزة تفتيش، استجواب، تفتيش مرة أخرى وفي النهاية مصادرة هوائي القمر الصناعي. أرسلوه لنا فيما بعد لكن مفككاً بعض الشيء. كنت متوتراً جداً، غير مرتاح على الإطلاق، لدرجة أنني شعرت بخجل لأنني لبرهة، راودني شعور بغيض ومستحيل: الكراهية.

لقد محي كل شيء بسرعة ولحسن الحظ إنني أعرف أنه منذ المسيح وفرويد، يجب أن نغفر للبشر، لأن البشر لا يعرفون دائماً ما يفعلون. من الطائرة نظرت إلى ساحل البحر المتوسط الجميل، على شاطئه هنا نساء يرتدين البكيني، وهناك حاويات قمامة تفوح منها رائحة الخطر والبؤس: سانت تروبز وغزة على نفس البحر.

جان ميشيل أسلان

21 ابريل 2009

10/10

<u>ربما كان من الأبسط أن نكون في حلم، أو بالأحرى في كابوس. وكأن الأسوأ يتبادر إلى ذهنك في طوفان لا يوصف من العنف</u>. في طب الطوارئ ، ولرصد شدة الألم عند المريض ، نطلب منه مرارا وتكرارا أن يعطي رقما بين

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا

صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

0 و 10 لقياس شدة ألمه : "بكم تقدر ألمك؟ صفر، لا يوجد الم بتاتا، وعشرة هو أسوأ ما يمكن أن تتخيله!" في غزة ، وخلال الأسابيع الثلاثة للعملية العسكرية الإسرائيلية الرصاص المسكوب،ردا على إطلاق صواريخ القسام على إسرائيل ، بقي مقياس الألم والأسى والظلم عالقا على 10/10.

الطوارئ هي محرك التزامنا. من دون تفكير ، ودون تحويل المساعدات الإنسانية إلى عملية فكرية زائفة لمعرفة من ستكون "الضحية الجيدة أو السيئة". أن نعمل من دون تأخير ، وبقدر كبير من الاحترافية لننجح في إنقاذ أكبر عدد ممكن من الأرواح. حتى وإن كان تقديم العلاج هو أولويتنا ، فهو ليس كل شيء. عندما نعمل بهذه الطريقة، فلأننا نريد أن نكون شهودا أيضا. يجب أن نُسمع صوت من يطلبون المساعدة ، حتى وإن بدا الوصول إليهم مستحيلا أو خطيرا للغاية. هذا ما نجحنا في القيام به في قطاع غزة. نهاية كانون الأول 2008 ، ومثل منظمات غير حكومية أخرى ، شاهدنا عاجزين الصور الأولى لهذه الحرب. نادى أطباء المستشفيات طلبا "للنجدة" فلم يعد بالإمكان إجراء العمليات وإنعاش الجرحى بسبب نقص الإمكانات. استطعنا استغلال باب صغير للدخول. فقدت أعلن الجيش الإسرائيلي وقفا لإطلاق النار لعدة ساعات يوميا ، وسمحت مصر استثنائيا بفتح نقطة العبور في رفح. وخلال 24 ساعة ، يوم 10 يناير 2009 كنا في رفح ، ثم بعد ذلك بليلة واحدة في مدينة غزة.

بفضل وسائل الإعلام القليلة الموجودة هناك ، وفور دخولنا غزة، استطعنا إعلام أكبر عدد ممكن من الناس. هناك، في مستشفى الشفاء ، كنا المنظمة غير الحكومية الفرنسية الوحيدة. واجهنا وضعا لا يمكن التنبؤ به حينما تحول دورنا من "المنقذ" إلى "الضحية" في غضون دقائق.

تعرضنا في 15 كانون الثاني للقصف والحريق مرتين في يوم واحد بنيران الجيش الإسرائيلي استهدفت مستشفى القدس التابع للهلال الأحمر الفلسطيني الذي كنت فيه مع المئات من المرضى والعاملين في المستشفى. وبعد أن تم الإعلان عن وقف إطلاق النار من جانب واحد في 19 يناير ، لم تُرد أطباء للمساعدة أن تقف عند هذا الحد... فحتى مع أننا عالجنا ونبهنا ، بقي علينا أن ننقل الحكاية.

فمن الصعب دائما التحدث عن غزة دون التعرض للاتهام بالتورط في هذا الصراع الأبدي. والغريب أن الدخول إلى غزة في إطار منظمة إنسانية يعطينا، نحن الأطباء، دورا فريدا ، إذ أن هذه الخشية غير موجودة في أي بلد آخر في العالم نذهب إليه. روى كل مرضانا قصصا مروعة للحياة، والبقاء على قيد الحياة! فقد مر كل واحد منهم يتقلب فيها بين الحياة والخوف والموت.

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

اخترنا أن ننقل كل ذلك على أدق وجه ممكن، بكلماتهم الخاصة. أتى معنا جان ميشيل أسلان، الكاتب والمحلل النفسي ومتسلق الجبال ، أتى معنا إلى غزة ليسمع ويكتب قصص الحياة هذه. لا يوجد احتراف في العمل الانساني، فقبل هذه المهمة ، لم يكن يعرف عن النزاع الإسرائيلي الفلسطيني إلا ما تتناقله وسائل الإعلام كلما ساءت الأمور. جعلته هذه الاستقلالية الذهنية ومهاراته كراوٍ الخيار الأفضل ليكون شاهدنا الكبير.

كل قصص الحياة هذه حقيقية، مفصلة، مؤكدة وقابلة للتأكد من صحتها... ثم ، عندما لا تعود الكلمات قادرة على التعبير، تأتي الصور لتكمل القصة. لقد فَتَننا بسرعة مفهوم المصور والفنان الجرافي جيرارد كوزيكي الأصلي المزدوج : "1 + واحد"، الذي اقترحه علينا لإثراء هذه المجموعة شديدة التعقيد. هاهما إذاً كتابان يستطيع كل واحد منا أن يقرأهما وأن يفهمهما على طريقته. يمكن فتحهما والاطلاع عليهما كل على حدة ، أو معا ، في أي ترتيب كان.

هذا التحقيق الإنساني الحقيقي – اجري بمنهجية صارمة – متاح الآن للمنظمات غير الحكومية المتخصصة في مجال حقوق الإنسان ، والدول وهيئات الأمم المتحدة التي تحقق في الأحداث التي وقعت في جلسة مغلقة من 27 ديسمبر إلى 22 يناير في فلسطين.

النسخة الأصلية باللغة الفرنسية، و تمت الترجمة الى اللغة العربية، قريبا سنترجم هذا الكتاب إلى اللغة الإنكليزية، والعبرية. سنذهب إلى غزة فنقدمه لمن قدموا لنا شهاداتهم. وسنذهب أيضا إلى تل أبيب لنحكي لمن يريد أن يسمع من الإسرائيليين ما عاشه هؤلاء الناس العاديين ،على بعد بضع عشرات من الكيلومترات من بيوتهم... في الفترة بين27 ديسمبر 2008 و18 يناير 2009.

الدكتور ريجيس غاريغ – طبيب طوارئ

رئيس أطباء للمساعدة

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

القانون الإنساني الدولي واتفاقيات جنيف

اللجنة الدولية للصليب الأحمر

القانون الإنساني الدولي هو مجموع القواعد التي تحمي، في زمن الحرب ، من لا يشاركون، أو توقفوا عن المشاركة في الأعمال العدائية، ويفرض قيودا على أساليب ووسائل القتال. وينطبق على النزاعات المسلحة ذات الصبغة الدولية وغير الدولية. الأدوات الرئيسية للقانون الإنساني هي اتفاقيات جنيف المحررة في 12 آب / أغسطس 1949 لحماية ضحايا الحرب. هذه المعاهدات المقبولة عالميا تحمي المقاتلين الجرحى والمرضى ، والناجين من السفن الغارقة وأسرى الحرب والمدنيين تحت سلطة العدو. كما تحمي اتفاقيات جنيف البعثات الطبية ، والمستشفيات ، والعاملين والمعدات ووسائل النقل الطبي. ومع ذلك ففيها فجوات في مجالات هامة مثل سلوك المتحاربين وحماية المدنيين من آثار العمليات العدائية. لتصحيح هذا ، تم اعتماد بروتوكولين في عام 1977 لاكمالها ، لا لأن تحل محلها.

اتفاقيات جنيف لعام 1949.

ينظم القانون الإنساني الدولي الجوانب ذات الطابع الإنساني فقط. وهذا ما يسمى قانون الحرب (أو القانون في الحرب). تنطبق أحكامه أيضا على جميع أطراف النزاع ، بغض النظر عن أسباب الصراع وعدالة القضية التي يدافع عنها أي من الطرفين.

في حالة نزاع مسلح دولي ، غالبا ما يصعب تحديد أي دولة انتهكت ميثاق الأمم المتحدة.

ومع ذلك ، لا يرتبط تطبيق نظام القانون الإنساني بتحديد الجاني ، فهذا من شأنه أن يؤدي حتما إلى جدل قد يشل تنفيذه ، إذ سيعلن كل من الغرماء أنه ضحية عدوان. بالإضافة إلى ذلك ، يهدف القانون الإنساني الدولي لحماية ضحايا الحرب وحقوقهم الأساسية ، أيا كان الطرف الذي تنتمي إليه. لذلك يجب أن يبقى قانون الحرب مستقلا عن الحق في شن حرب أو الحق في منع نشوب حرب.

صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

اتفاقية اتفاقية جنيف الرابعة المتعلقة بحماية

المدنيين في زمن الحرب ، 12 آب/أغسطس 1949

حجر الزاوية للقانون الإنساني الدولي

أظهرت أحداث الحرب العالمية الثانية كم من المؤسف غياب اتفاقية دولية لحماية المدنيين في زمن الحرب. الاتفاقية التي اعتمدت في عام 1949 تأخذ في الاعتبار تجارب الحرب العالمية الثانية.

اتفاقيات جنيف وبروتوكولاتها الإضافية هي معاهدات الدولية تحتوي على القواعد الأساسية لوضع حدود لوحشية الحرب. وتحمي الناس الذين لا يشاركون في الأعمال العدائية (المدنيين والعاملين في المجال الطبي أو المنظمات الإنسانية) وأولئك الذين لم يعودوا يشاركون في الأعمال العدائية (الجرحى والمرضى والناجين من السفن الغارقة وأسرى الحرب) .

تنص الاتفاقيات وبروتوكوليها على اتخاذ تدابير لمنع ما يسمى بـ "الانتهاكات الخطرة" أو تضع حدا لها ويجب معاقبة مرتكبيها. انضمت 194 دولة إلى اتفاقيات جنيف فحظيت باعتراف عالمي.

القواعد الأساسية السبع
لاتفاقيات جنيف وبروتوكولاتها الإضافية

يهدف هذا النص إلى تسهيل نشر القانون الدولي الإنساني ولا يعتبر أداة قانونية دولية
(المصدر: اللجنة الدولية للصليب الأحمر).

1. الأشخاص العاجزون عن القتال ، وأولئك الذين لا يشاركون مباشرة في الأعمال العدائية، يحق لهم احترام حياتهم وسلامتهم البدنية والمعنوية. وتوفر لهؤلاء الأشخاص في جميع الأحوال الحماية والمعاملة الإنسانية دون أي تمييز ضدهم.
2. يحظر قتل أو جرح عدو يستسلم أو عاجز عن القتال.

" أطباء للمساعدة " – منظمة انسانية غير حكومية – فرنسا
صفحة الكترونية : www.helpdoctors.org بريد الكتروني : info@helpdoctors.org
حقوق الطباعة و النشر محفوظة

3. يجب أن يجمع الجرحى والمرضى وأن تقدم لهم الرعاية من قبل طرف النزاع الواقعين تحت سلطته. كما تشمل الحماية العاملين في الخدمات الطبية والمرافق ووسائل النقل والمعدات الطبية. شارة الصليب الأحمر أو الهلال الأحمر هي علامة هذه الحماية ويجب أن تحترم.
4. للمقاتلين الأسرى والمدنيين الواقعين تحت سلطة الطرف الخصم الحق في احترام حياتهم وكرامتهم وحقوقهم الشخصية ومعتقداتهم. ستؤمن لهم الحماية من جميع أعمال العنف والانتقام. وسيكون لديهم الحق في تبادل الأخبار مع عائلاتهم وتلقي المساعدة.
5. يحق للجميع التمتع بالضمانات القضائية الأساسية. لن يُحمّل أحد مسؤولية فعل لم يرتكبه. لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب الجسدي أو النفسي، ولا آلام جسدية أو معاملة قاسية أو مهينة.
6. لا يتمتع أطراف الصراع وأفراد القوات المسلحة بحق مطلق في اختيار أساليب ووسائل الحرب. ومن المحظور استخدام أسلحة أو أساليب حرب بحيث تتسبب بخسائر لا داعي لها أو بمعاناة مفرطة.
7. على أطراف الصراع التمييز في جميع الأوقات بين المدنيين والمقاتلين من أجل تجنيب السكان المدنيين وممتلكاتهم.

لا يجب ان يتعرض السكان ، او الافراد المدنيين للهجموم. توجه الهجمات ضد أهداف عسكرية فقط.

القانون الإنساني الدولي وحقوق الإنسان

القانون الإنساني الدولي والقانون الدولي لحقوق الإنسان فرعان مستقلان من فروع القانون ولكنهما متكاملان. كلاهما يهدف إلى حماية الناس ضد الاجراءات التعسفية وسوء المعاملة. حقوق الإنسان ملازمة للبشر ، ويجب حمايتها في جميع الظروف ، في زمن الحرب كما في السلم. ومع ذلك فإن القانون الإنساني الدولي لا يطبق إلا في حالات النزاع المسلح. وهكذا ، في حالات الصراع المسلح ، ينطبق هذان الفرعان بطريقة متكاملة.

الأحكام القانونية الأساسية المتعلقة باحتلال
أراضي من قبل قوة معادية وآثارها
على الأشخاص المحميين بموجب القانون الإنساني الدولي

حقوق الطباعة و النشر محفوظة

تعتبر الأراضي "محتلة" عندما تقع فعليا تحت سلطة قوات مسلحة أجنبية كليا أو جزئيا ، دون موافقة الحكومة الوطنية. لا يشمل الاحتلال سوى الأراضي التي تقع عليها هذه السلطة ويمكن ممارستها. القانون الإنساني الدولي ينطبق على جميع الحالات التي تستوفي هذه الشروط ، مهما كانت الأسباب والدوافع التي تؤدي إلى الاحتلال ، مثل النية المعلنة لـ "تحرير" سكان بلد ما وبغض النظر عن شرعية هذا الاحتلال من وجهة نظر القانون الدولي.

حقوق الطباعة و النشر محفوظة